البَابُ الثَانِي

جذور النهضة الحديثة

obeikandl.com

مدخل :

اجتازت مصر العصر العثمانى بكل ما فيه من ضعف وجمود وعزلة وأخذت تطل على عصر جديد ، هو بحق نقطة تحول فى حياة المجتمع المصرى بصفة عامة ، وحياة المرأة المصرية بصفة خاصة .

وكانت حتمية التاريخ تفرض هذا ، ذلك أن الحضارة ليست حكرًا على شعب بعينه ، بل ان من أبرز ميزاتها أنها ذات طابع إنسانى عام ، هى ملك لكل الشعوب ، وثمرة لجهد البشرية مجتمعة وبدون التفاعل بين الشعوب والتأثر والتأثير تفتقد الحضارة أبز ميزة لها وهى ميزة الإستمرار والديمومة .

ومصر معروفة بدورها الحضارى القديم فهى التى وضعت بذور الحضارة القديمة وعن الحضارة المصرية أخذها اليونان ليستوعبوها ويزيدوا عليها ، ومن اليونان أخذها العرب ليضيفوا إليها ما يتفق وقيمهم وروحهم . ومن العرب أخذتها أوربا لتهضمها وتفيد منها وتعمل على تطويرها وتطويعها لأهدافها . وها هى الآن تعود الحضارة مرة أخرى للعرب بأسلوب سلمى حينا وأسلوب عدوانى أحيانا . ومصر بحكم موقعها الاستراتيجى ، وتوسطها بين دول العالم ، كان عليها أن تتأهب لملاقاة هذه الوافد الجديد لتنتقى منه ما يتلاءم مع قيمها وروحها ، وتلفظ منه ما لا تراه مستساغا مقبولا .

والتجديد فى الفكر الإسلامى وصلته وبتربية المرأة لم يكن إلا محصلة للصراع بين شكلين من الحضارة ، شكل غربى متطور طامع ، وشكل شرقى منعزل متخلف .

ولم يكن ليتم التجديد فى الفكر الإسلامى فتنشط الدعوة لتربية المرأة لو لم يحدث هذا الاتصال بين الشرق الإسلامى وبين الغرب وقد تم الإتصال بينهما بالسبل الآتية :

١ – الحملة الفرنسية .

٢ – محاولات محمد على فى بناء مصر الحديثة .

٣ – جهود رفاعة الطهطاوى .

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية

فى حديثنا عن الحملة الفرنسية سنعرض للجوانب التالية :

دوافع الحملة الفرنسية – الحملة الفرنسية والإسلام – الحملة الفرنسية والديمقراطية – الحملة الفرنسية والخدمات الاجتماعية – الأثر الفكرى للحملة – الحملة والمرأة المصرية – أهم ما أسفرت عنه الحملة . وهذه هى الجوانب ذات الصلة بموضوعنا .

دوافع الحملة :

مثلت الحملة دورًا من أدوار النزاع القائم بين إنجلترا وفرنسا على التوسع الاستعمارى ذلك النزاع الذى يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر ، والذى استمر خلال القرن الثامن عشر وقد اتخذ هذا الصراع طورًا جديدًا بعد الثورة الفرنسية التى قضت على الملكية وقوضت دعائم النظام القديم ومهدت السبيل لنظام جديد فأعلنت الجمهورية ١٧٩٢م .

وقد أراد نابليون بعد الإنتصارات الساحقة التى أحرزها فى حروبه فى إيطاليا ، أن يعد العدة ويجهز حملة يبعث بها إلى مصر لتكون له السيادة فى البحر المتوسط ، وليمكن له أن يتخذ من مصر القاعدة التى ينفذ منها إلى المستعمرة الهندية وبذا يقضى على إنجلترا غريمة فرنسا .

هذا فوق أن نابليون كان واسع الأحلام ، بعيد المطامح ، هيأت له إنتصاراته العديدة وحداثة سنه أن ينشىء إمبراطورية كالتى أنشأها العظماء قبله من أمثال يوليوس قيصر . وفى إيطاليا تبلورت فكرة الغزو فأخذ يعد العدة واستولى على أسطول البندقية وضمه إلى أسطوله ، كما استولى على بعض الجزر مثل جنوا ، وكورفو ، وقام بدراسات خاصة عن مصر .

وفكرة الحملة – كما يرى الرافعي – ليست وليدة عصر نابليون . ففي القرن الثالث عشر راودت هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا باسم الدين ، وفي القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الألماني « ليبنتز » الملك لويس الرابع عشر بغزو مصر وفي القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وترددت في تقاريرهم ومذكراتهم[١] .

ولعل تطور فكرة الحملة عبر هذه العصور يعطي لنا تفسيرًا للأثر الخطير الذي أحدثته في مصر فهي ليست فكرة فجة أو مجرد غزو بل هي فكرة قائمة على التخطيط والدراسة الإستراتيجية ومحاولة الأخذ بكل أسباب انجاحها .

الحملة والإسلام :

كتب نابليون لرئيس حكومة جنوة المقتة عام ١٧٩٧م يقول : لا تنس أنك كلما جعلت الدين أو حتى الخرافة يصطرع مع الحرية ، فإن النصر سيعقد دائما للدين على الحرية في عقل الشعب ، وكتب كليبر « علينا أن نهدهد التعصب حتى ينام قبل أن نستطيع إقتلاعه » . وكتب في سانت هيلانه يقول : « ان الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة على الشعب المصري في شتى العصور ... فلما ظهر الإسكندر الأكبر على حدود بلادهم جاءوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم ، ولما عبر الصحراء في زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الإسكندرية إلى معهد آمون ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جوبيتر – كان يفعل هذا وهو على وعي تام بعقلية هؤلاء الناس ... وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد ، أكثر مما يحققه لو بنى عشرين حصنًا وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين المقدونيين[٢] .

ولأن نابليون كان مولعا بالإسكندر فقد وقف عند سياسته الدينية هذه وقفة الواعي المستفيد فهو يعرف كنة هذا الشعب وحقيقته ويعرف أن سر بقائه وخلوده هو الدين

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٢) ج . كرستوفر هيرولد (المترجم فؤاد اندراوس) ، بونابرت في مصر ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥١ .

فالدين يمنحه الصمود والصبر أمام الحاكم الغاصب ، ويعطيه الثورة والمقاومة أمام المستعمر الطامع ، الدين يعنى ذاته فحين يدافع الشعب عن دينه فإنما يدافع عن ذاته .

ولقد تحدث نابليون عن الأسباب التى جعلته ينتهج هذه السياسة الإسلامية فقال « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة لأنهم أولا : هم كذلك بطبيعة الحال ، وثانيا : لأنهم هم مفسرو القرآن وان أكثر العقبات التى تواجهنا ، وسوف تواجهنا أيضا ، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية وثالثا : لأن هؤلاء العلماء ذو طباع هادئة ويحبون العدالة ... .. وأصحاب مبادىء خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناسّ أمانة فى مصر ولا يركبون الخيل ولا يمارسون أعمالاً عسكرية ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة[١] .

كان على نابليون أن يفطن لهذا وأن يعيه جيدا وأن يتخذ لذلك كافة السبل كان عليه حسب قوله « أن يهدهد هذا التعصب وأن يجارى الشعور الدينى وإن كان لا يعتقده وقد قال لرفيقه جورجو فى سانت هيلانة » ان المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقًا للناس وأن يبذل الوعود الكثيرة ولا يفى بوعد منها[٢] .

إدعى نابليون أنه مبعوث العناية الإلهية ، وإن الله تعالى قد خصه برعايته والدليل على ذلك هزيمته للمماليك وقد ذكر أن هذه الثورة العظمى التى جاء بها قد تنبأ بها القرآن فى عدة آيات كما ذكر أيضا أنه « سرت بين الناس مئات الشائعات فقال بعضهم أن النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير وقال له : ... .. إجهر بإيمانك بأركان دينى لأنه دين الله ان العرب فى إنتظار هذه العلامة وسأخضع آسيا كلها لسلطانك ويواصل حديثه قائلا « ان السلطان الكبير إنتهز فرصة هذه الشائعات ليلح بأنه فى رده على النبى التمس مهلة سنة يعد فيها جيشه ، فمنحها له النبى ، وأنه تعهد بأن يبنى مسجدًا عظيمًا ، وأن الجيش كله سيعتنق الإسلام وأن إثنين من كبار الشيوخ هما الشيخ السادات والشيخ البكرى ، يعتبرانه مسلما فعلا[٣] .

على أن نابليون لم يكتب مثل هذا بل كتب منشورًا للمصريين يؤكد فيه إسلامه كتب يقول « بسم الله الرحمن الرحيم » لا إله إلا الله لا ولد له ، ولا شريك له فى

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى ، صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وزارة الثقافة والاعلام ، ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

ملكه ، من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يعرف أهالى مصر جميعهم أنه من زمان مديد والسناجق الذين يتسلحون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى ، نحضر الآن ساعة عقوبتهم يا أيها المصريون قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين : أننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأننى أكثر من المماليك ، أعبد الله سبحانه وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا لهم أيضا أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل ورحيم . أيها المشايخ والقضاة وأعيان البلاد قولوا لأمتكم أن الفرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون وائبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرس البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللوريه الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، وقد أصدر المنشور فى ١٨ محرم ٢١٣هـ[1] .

ويقال أنه دار نقاش عجيب بين شيوخ الأزهر وبونابرت حول إعتناقه الإسلام فقد أخبر بونابرت أن إعتناقه هو وجيشه للإسلام يحول دونه عقبتان : أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمر فمن الصعب على رجاله أن يقلعوا عن الخمر كما أنهم يزهدون كل الزهد فى الختان . وبعد النقاش يقال أن ثمة فتوى ظهرت تزعم أن الختان نافلة وأنه ليس ضرورة لا غنى عنها للمسلم ، أما الخمر فقد يشربها الإنسان وهو مسلم وإن يكن فى حالة من الإثم لا تجعله أهلا للاستمتاع بمباهج الجنة .

غير أن نابليون لم تعجبه فتوى الخمر ، فاختلى العلماء طالبين العون من الله لينير بصائرهم وأخيرا أصدروا الفتوى الثانية ومؤداها : أن فى وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا الجنة رغم هذا بشرط التكفير عن هذا الإثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلاً من العشر المألوف .

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ .

ومن المشايخ الذين اشتركوا فى هذا الجدل الفقهى الشيخ البكرى الذى « ألف كل ليلة أن يشمل بشرب خمر مزجت فيها زجاجة من البرجندى بأخرى من البرندى[١] .

ومن الوسائل التى لجأ إليها نابليون لمهادنة الشعور الدينى استقطاب الشيوخ والعلماء واكتساب رضاهم وتملقهم فكان الشيوخ وعلماء الأزهر يأتون عند شروق كل شمس إلى قصره قبل الصلاة فيملأ حرسهم ساحة ميدان الأزبكية ويمتطون بغالهم المطهمة ومن حولهم اتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم ، فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية وفى القصر يستقبلهم بالتجلة وتقدم لهم المشروبات والقهوة ، وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الأريكة ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ويطلب تفسير الآيات الهامة ، وبإبداء إعجابه العظيم بالرسول حتى إذا غادروا القصر انصرفوا إلى المساجد التى تجتمع فيها الناس فحدثوهم بآمالهم وهدأوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين فكانوا يؤدون للجيش خدمات إيجابية جدا »[٢] .

ورغم هذه السياسة المغرضة ، ورغم هذا التملق والتظاهر بالإسلام ورغم ما أحدثته هذه السياسة فى عقول السذج والبسطاء – فإن هذه السياسة لم تفلح حيث كانت الحملة تذكر دائمًا باعتداء الصليبيين ، فقد كان الشعب ينظر إلى رجالها على أنهم دخلاء غاصبون ، سرعان ما ينحسرون عن وطنهم كما انحسر عنه غيرهم وعندما رأى نابليون فشل سياسته هذه بقيام الثورة فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ اضطر إلى العنف واقتحم الأزهر برجاله وخيله .

وكانت هذه الثورة مرحلة أولى لنمو الوعى القومى والإسلامى معًا فقد بدأ العلماء وهم قادة الأمة يحسون بأهميتهم وقدرتهم على توجيه أمور الحياة والمشاركة فى صنعها كما أخذوا يدركون أن واجبهم يملى عليهم أن يدافعوا عن وطنهم ويدرءوا عنه الظلم وهم فى كل أولئك يستلهمون الذين ويستوحون تعاليمه .

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد (ترجمة فؤاد اندراوس) ، بونابرت فى مصر ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧م ، ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

الحملة ونظام الحكم الديمقراطى :

على أن مما ساعد على نمو الوعى القومى الإسلامى معا تلك السياسة التى اتبعها نابليون فى إدارته وحكمه للبلاد وهى امتداد لادعاءاته الإسلامية ، هذه السياسة هى الأخذ بنظام الحكم الديمقراطى .

فقد قام نابليون بتأسيس الديوان وكان أعضاؤه تسعة وكلهم من رجال الدين ومنهم الشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الصاوى وكان مقر الديوان بيت قائد أغا . وعمم نابليون نظام الدواوين فى مديريات القطر المصرى وكان أعضاء ديوان المديرية سبعة ويتم اختيار الأعضاء بالانتخاب ، والسلطة التى خولت للدواوين هى السلطة المدنية التى تتصل بالأمن ورعاية العدل بين الناس وبحث شكوى الشاكين ومظالمهم[١] .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ ورؤساء الجند فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير وعقد بعد ذلك منه ومن أعضاء الدواوين الاقليمية ليستشيرهم جميعًا فى النظم التى يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفى قوانينها القضائية والمالية والإدارية وقد تم انتخاب الشيخ الشرقاوى بالاقتراع السرى رئيسًا للمجلس .

وقال الشيخ الشرقاوى عن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » غير أن تصورات النواب عن الاصلاحات المقترحة وعن القانون المدنى الأوربى لم تكن لتمت للواقع بسبب فكانت فكرتهم مثلا عن قانون المواريث فى فرنسا « لا يورث الولد وتورث البنت لأن الولد أقدر على التكسب من البنت » ولم يكن هذا ليتفق مع تعاليم الإسلام .

وقد رؤى الإبقاء على العادات والتقاليد القديمة أوردها إلى ما كانت عليه . ويقول الجبرتى « ان الأعضاء المسيحيين كانوا على تمام الاتفاق فى هذا مع زملائهم المسلمين وكان الإجراء المالى الوحيد الذى اقترح هو فرض ضريبة تصاعدية على العقارات فى المدن يقول الجبرتى « ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور[٢] .

---

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر (جـ ١) ، القاهرة : الانجلو المصرية ١٩٥٥م ، ص ١٨٨ .

(٢) تاريخ الجبرتى ، ص ٢٦ .

ومع أن تشكيل الديوان كان صوريا إلا أنه أيقظ روح الثورة وبعث الوعى القومى وهز الفكر الإسلامى بما أرساه من دعائم الحكم الديمقراطى فقد بين للشعب أنه هو صاحب الحق فى حكم البلاد وأنه لا يصح للفرد أن ينفرد بالحكم أو يستبد به وأن من حق الشعب أن يثور على الحاكم متى تجاوز قدره وانتهك القانون ، فالحكم يجب أن يكون شورى وأولو الأمر يجب أن يلتزموا بتعاليم الشرع .

فتشكيل الديوان نبه الشعب لحقه فى الحكم والرقابة وذكره بعهود السلف الإسلامى عندما كان الأمر شورى كما أن تشكيل الديوان نبه العلماء ورجال الدين إلى واجبهم فى أمر الحاكم بالمعروف ونهيه عن المنكر أو الحيلولة بنيه وبين الحكم الفردى والقيام بالبحث والدراسة التى توضح نظام الحكم الإسلامى ولعل هذا يفسر ما وقع بعد ذلك من أحداث تؤكد نشأة هذه اليقظة فقد دار حوار بين السيد عمر مكرم ممثل الشعب والعلماء وبين مندوب خورشيد كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فرد السيد عمر مكرم : ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها فلقد كان لأهل مصر دائمًا الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه[1] . فهذا وغيره مما حدث من ثورات ، وقدرة الشعب على التصدى للسلطان العثمانى وإرغامه على عزل الحاكم ، وقيامه بتنصيب محمد على واليا على البلاد – يؤكد أن الديوان فى حياة البلاد السياسية .

الحملة والخدمات الاجتماعية :

سجل الجبرتى الكثير من الأعمال والتنظيمات التى قام بها الفرنسيون والتى كان لها أثر طيب فى حياة المصريين ومن ذلك العناية بالصحة والنظافة فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة وجعلوا مدافن الموتى خارجها . كما أمروا بالتبليغ عن المرضى إذا كان هناك وباء ، وعدم الانتقال من مكان موبؤ ، ومن يخالف الأمرين يقتل ولو كان

(١) محمد فريد أبو حديد ، سيرة السيد عمر مكرم ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٤٦ .

فرنسيا . كما أمروا الأطباء أن يقوموا بالكشف على المرضى وقد أقاموا حجرا صحيا فى بولاق يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكشف عليه فإن كان مريضا حجز وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت . وأكدوا على نشر الثياب وتطهير المنازل درءا للوباء .

ومن أهم ما قاموا به تقرير شهادة للولادة حيث أمروا بقيد كل مولود ، كما أمروا بتسجيل الممتلكات وإضاءة الشوارع والأزقة ، كل دار عليها قنديل ، وكل ثلاثة دكاكين عليها قنديل ، والعناية بالإضاءة الغرض منها الحفاظ على الأمن ، كما أنشأوا جوازات للسفر وخصصوا ضريبة ثابتة على المواريث وقد كانت من قبل تخضع لرغبة الحاكم مما جعل الشعب يعانى الظلم الكثير وفرضوا رسما ثابتا على الأقضية وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن الخدمات الاجتماعية التى قاموا بها والتى سجلها الجبرتى – محاربة التسول والشعوذة ذلك أنهم خصصوا دارا جمعوا فيه المتسولين وفرضوا لهم مالا ينفق عليهم من أموال الأوقاف وكان بعض البلهاء ومدعو الولاية يسيرون فى الشوارع عراة يصيحون ويصرخون مع أنهم لا يصومون ولا يصلون وقد سأل الجنرال مينو العلماء فى ذلك وهل يعد هذا من الدين فأنكر العلماء وأمر الجنرال بالقبض عليهم جميعا فمن كان منهم مريضًا أدخله المستشفى ومن كان سليمًا أخرج من القاهرة .

ومن خدماتهم الاجتماعية أيضا إنشاء الأرشيف فى الديوان الذى تحفظ فيه صور الشكاوى والتظلمات وما يصدر عن الديوان من أحكام .

وتحقيقًا لأمن الدولة أمروا كل صاحب فندق أو خمارة أو بيت أن يكتب اسم من ينزل فى محله أو يدخله ويبلغ ذلك لحاكم البلد قبل مرور يومين مع بيان الجهة التى قدم منها النازل أو الزائر وسبب قدومه ومدة سفره والعمل الذى يزاوله[1] .

ومن أعمالهم الاجتماعية أيضا إقامة مصانع للأدوية وطواحين الهواء وفرض الحجر خارج القاهرة وفى الإسكندرية وفى رشيد ودمياط .

وتسجيل الجبرتى لهذه الأعمال واعترافه بفضل الفرنسيين ليؤكد ما ذهب إليه المؤرخ الإنجليزى « توينبى » من أنه كان صورة نموذجية لتأثر الحضارات بعضها ببعض وأن

---

(١) الجبرتى ، مظهر التقديس ، وزارة التربية والتعليم ١٩٦١ ، جـ ١ ، جـ ٢ .

الإسلام لم يكن دينا جامدا وأن الجبرتى وهو الرجل المسلم لم يكفر بدينه عندما رأى الفرنسيين ينتصرون ويتقدمون بل هو رأى أن دينه عظيم ، وذكر أن الفرنسيين لا يظلمون أجيرا وإنما يعطون للقاتل فرصة الدفاع عن نفسه .

ويؤكد « توينبى » أن الجبرتى رجل محب للعدل موضوعى منصف ويراه أنه أعظم المؤرخين فى كل العصور[١] .

الأثر الفكرى للحملة الفرنسية :

بنفس القدر الذى أولاه نابليون للغزو العسكرى كان الإهتمام بالغزو الفكرى فأسس نابليون المجمع العلمى وتم تأسيسه فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م وقبل أن نتحدث عن آثار المجمع يجدر أن نشير إلى الدوافع التى حملت نابليون على تأسيسه ؟

وكانت هناك دوافع عديدة حملت نابليون على إنشاء المجمع العلمى ولكنها لم تكن متناقضة ، كان لا يزال مزهوا بانتخابه فى ١٧٩٧ م عضوا بالمعهد القومى الفرنسى ، ومع ذلك فقد كان يحس أن العلم له آثار خالدة أبقى من آثار الحرب ولقد صرح غير مرة بأنه عدو للعسكرية . فالعظمة تملى عليه أن يكون أكثر من قائد وأكثر من دكتاتور وأكثر من امبراطور وإذا لم يترك أثرا فى التشريع وفى التقدم الصناعى والعلمى وفى جلائل الأعمال الفنية فإن حظه من التاريخ سيكون مجرد فترة عابرة ، ومصر أرض صالحة لمثل هذا الصنيع .

وكانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس إحدى المواهب الكثيرة التى تفرد بها ، فأنشأ المجمع العلمى المصرى ليُساعد فى إدارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها فى المستقبل .

وكانت الغايات التى يقصد إليها من وراء المجمع قسمين :

١ – سد الحاجات العاجلة كإقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها . وإصلاح النظام المالى والتمهيد لتطور مصر الاقتصادى بالقيام بدراسات حول شق القناة وإدخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ووضع نظام تعليمى جديد ، وكان كتاب « وصف مصر » سجلا لكل هذه الغايات . ويقول « ج . كرستوفر هيرولد »

---

(١) أنيس منصور ، « مات أشجع رجل فى العالم » جريدة الأخبار ١٩٧٥/١٠/٢٥ .

ولم يقم أحد من قبل ولا من بعد بدراسة تتميز بهذا الإتساع وهذه الدقة على أساس عمل ميدانى تم فى مثل هذه الفترة القصيرة وفى مثل هذه الظروف المرهقة غير المواتية[١] .

٢ – القسم الثانى من الغايات ، وهو جانب معرفى بحت قصد به دراسة كل جانب من جوانب هذا البلد الأسطورى الذى لا يعرف عنه إلا القليل – تاريخه ، آثاره ، فنونه ، بيئته الجيولوجية .

ويقال أن نابليون صرح بأن أحجار الهرم الأكبر قد بنى بها سور يحيط بفرنسا عرضه متر وإرتفاعه ثلاثة أمتار ، كما يقال أنه رفض أن يدخل هرم خوفو لأن الدخول يقتضيه أن يزحف على يديه ورجليه وهذا ما يتنافى مع إبائه[٢] .

على أن أهم الآثار الفكرية للحملة الفرنسية هو تلك المطبعة التى كانت تطبع باللغات الفرنسية واللاتينية ، واليونانية والسريانية والعربية وكان أول كتاب تم طبعه « تطبيقات فى العربية الفصحى » مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية وقبل وصول الفرنسيين إلى مصر لم يكن قد طبع فى مصر سطر واحد .

ويفضل المطبعة ظهرت الصحافة السياسية والاجتماعية التى أخذت تعمل على تشكيل الرأى العام وعلى إنماء الوعى القومى والفكرى وعلى معالجة المشاكل الاجتماعية ومن أهمها قضية المرأة التى شغلت جانبًا كبيرًا من فكر القرن التاسع عشر .

فالحقيقة أن الحملة الفرنسية لم تكن مواجهة بين دولتين أو جيشين بقدر ما كانت مواجهة بين عقليتين : عقلية جامدة متخلفة ، وعقلية راقية آخذة فى التطور . وكان لابد أن يسفر الصراع عن تصدع فى المفاهيم والمعارف التى ألفتها العقلية الشرقية وأن تهتز هذه العقلية الشرقية لتلك المعارف الجديدة التى واجهتها مع العقلية الغربية وكان لابد أن يكون هذا نواة ليقظة فكرية سوف تثمر وتزدهر على امتداد القرن التاسع عشر .

الحملة الفرنسية والمرأة :

كان للحملة فى حياة المرأة المصرية أكثر من أثر ، وبعض هذه الآثار كان حميدًا والبعض الآخر كان قبيحًا .

---

(١) بونابرت فى مصر ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٣١ .

وعن الأثر القبيح فوفقا للتقاليد والعادات الاجتماعية التى حملها معهم الفرنسيون كان يجوز الاختلاط علانية بين الرجل والمرأة ولم يكن الرجل الفرنسي يرى أى غضاضة أو عيب فى أن يصحب امرأة فى نزهة سواء أكان ذلك فى حديقة أم فى شارع ، ولقد أنشأ الفرنسيون فى غيط النوبى بالأزبكية منتزها مبنيا على هيئة مخصوصة ، يجتمع فيها الرجال والنساء للهو والخلاعة – على حد تعبير الجبرتى – فى أوقات مخصوصة وكانوا يجعلون على كل من يدخل إليه قدرًا مخصوصًا يدفعه أو يكون مأذونا وبيديه ورقة كتصريح بالدخول .

وقد عمد الفرنسيون أيضًا إلى ممارسة التسلى والترفيه فأنشئوا المسرح وزاولوا التمثيل . وكانت حفلات المسرح تقام فى كل عشر ليال مرة واحدة لمدة أربع ساعات وقد صادفت هذه الحياة الجديدة هوى فى نفوس البعض فشاركوا الفرنسيين لهوهم ومجونهم وأخذوا يقلدونهم فى سلوكهم وثيابهم . وقد وطد هذه المشاركة ما تم من زواج بين بعض الفرنسيين وبين بعض المصريات مما عمل على نشر هذه الحياة الجديدة واجتذاب الكثيرين إليها .

وقد لخص الجبرتى حياة المرأة المصرية فى تلك الفترة فقال « ومنها – حوادث ١٢١٥ – تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغى ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل الفواحش فتداخلن معهم لخضوعهن للنساء وبذل الأموال لهم وكان ذلك التداخل أولا مع بعض إحتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه ، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيين ومن والأهم وشدو رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة موادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربنه بتاسومتها (حذائها) فطرحن

الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصًا عقول القاصرات[١] .

تلك كانت هزة عنيفة لنظام الحريم السائد المتشدد وثغرة تنطلق منها الرغبات المكبوتة المغرضة واقتحامًا لداخل حياة المرأة .

وكان طبيعيًا أن يكثر البغاء وأن يزيد عدد البغايا وأكثرهن أرامل ومطلقات حتى أن الجوارى السود عندما أحسن رغبة الفرنسيين فى الأنثى لذات الأنثى كن يتسلقن الأسوار ويتسابقن إليهم[٢] ولقد أصدر الديوان أمرًا بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهرًا وفرض عقوبة الإعدام على من تدخلها منهن أو من يدخلها وكان ذلك سبب إنتشار الطاعون[٣] .

وكانت زينب بنت البكرى مثلاً مجسدًا للأثر السيىء الذى خلقته الحملة الفرنسية فقد تبرجت مع الفرنسيس وخرجت عن طورها معهم ودفعت حياتها بعد جلائهم ثمنًا لذلك .

أما عن الأثر الحميد ففى حياتهما الزوجية قد أخذت المرأة تأسى لحالها بل تثور عليه وتطالب أن تعامل معاملة كريمة غير هذه المعاملة الظالمو البهيمية فقد تزوج الجنرال مينو بإمرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها أوثق المجالس ويقدم إليها خير الأطعمة وأشهاها وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه وقد روت إحدى النسوو لصاحباتها هذه المعاملة وهن فى أحد حمامات رشيد سنة ١٧٨٨ ، فثارت النساء لذلك ولاحت لهن بارقة أمل فى تغيير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضا قدمته إلى السلطان الأكبر بونابرت ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل مينو زوجته الرشيدية[٤] .

---

(١) الجبرتى ، مظهر التقديس ، جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٢) بونابرت فى مصر ، ص ٢١٧ .
(٣) مصر فى القرن الثامن عشر ، صر ١٨٣ .
(٤) كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر ، صر ٦٢٤ .

فى الوطنية :

هذا فيما يتصل بحياتها الزوجية أما فيما يتصل بوطنيتها فقد أذكت الحملة فيها روح الحماسة والوطنية وجعلتها تقف جنبا إلى جنب مع الرجل فى ثورته ودفاعه عن وطنه .

فى التعليم :

وعن تعليمها فقد كان عليها أن تنتظر طويلا حتى يزداد اللقاء بالغرب ويقوى التأثير به فما كان الحملة الفرنسية إلا الطرقة الأولى الغربية على باب العزلة والجمود فى مصر الشرقية .

وأخيرًا فإن ما أسفرت عنه الحملة الفرنسية كان يتمثل فى الدعوة إلى اليقظة الفكرية بإستخدام المنهج العلمى الصحيح القائم على الملاحظة والتجربة ورفض أسلوب الجدل والشعوذة والخرافة كما كان يتمثل فى بداية ظهور الوعى القومى والدينى ، وهذان كانا دعامتين ليقظة الفكر الإسلامى وتربية المرأة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

محاولات محمد على فى بناء مصر الحديثة

تحدثنا عن الحملة الفرنسية وذكرنا أنها كانت تمثل لقاء جديدا فى تاريخ مصر الحديث ولكنه لقاء مشوب بالحذر والتوجس ومنطبع بالغزو والإعتداء ومع هذا فقد تهيأت التربة المصرية لتقبل بذور التجديد وإحتضانها مهما قيل عن هذه الحملة ومهما إختلفت الآراء حول أهميتها إما بدافع النزعة القومية أو بالإنبهار بأثرها فإنه لا يمكن إغفال الدور المهم الذى أدته كرافد من روافد التجديد وسبيل من سبل إتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، ويكفى أنها لفتت أنظار العلماء إلى أهمية الإستفادة من هذه الحضارة الغربية ولقد كان الشيخ حسن العطار – ١٨٣٤ م – خير مثال لذلك ، كذلك يكفى أنها تركت بصماتها على حياة المرأة المصرية فى جوانب متعددة مهدت للدعوة إلى تعليمها والإرتقاء بتربيتها .

وحديثنا الآن عن اللقاء الثانى بإعتباره أحد الروافد التى أدت إلى التجديد وهو لقاء يشغل مساحة زمنية تمتد لتقترب من نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويتميز هذا اللقاء من سابقه بأنه تحرر كثيرا من طابع التوجس والحذر وصار مبعثه الرغبة والحرص على الإفادة من مصادر الحضارة الغربية .

على أن هذا اللقاء بين العقلية الشرقية وما إعتراها من جمود ، والعقلية الغربية بكل ما فيها من تجدد وتطور كان لابد أن يتم ، وكانت تمليه حتمية التاريخ فمنذ أن رحلت الحملة عن مصر ١٨١٠ م كانت هناك محاولات استعمارية تبغى السيطرة على مصر بعد أن إتضحت أهمية موقعها ومكانها من دول العالم ، وتمثلت هذه المحاولات أخيرا فى تلك الحملة الإنجليزيةالتى باءت بالفشل فى رشيد ١٩٠٧ م على أنه مع التقدم العلمى الذى أدى إلى سرعة الإتصال بين الشعوب كان من غير المتصور أن تظل مصر بعيدة عن ميدان الإتصال الحضارى .

والحديث عن اللقاء يعنى الحديث عن محمد على بإعتباره شغل من مساحة القرن التاسع عشر ما يقترب من نصفه وبإعتبار أنه مؤسس دولة مصر حتى لقد صار تأسيس دولة مصر الحديثة مقترنا باسمه كما يبدو من بعض عناوين الكتب التاريخية مثل بناء دولة مصر محمد على « الدكتور محمد فؤاد شكرى وآخرين » .

وفى دراسة عصر محمد على سنعرض للخطوط العامة التى شكلت هذا العصر مع العناية خاصة بما يتصل بموضوعنا من حيث الفكر الغربى وصلته بتربية المرأة .

الوضع السياسى :

أخذ العامل القومى فى الظهور بصورة جادة عقب خروج الحملة الفرنسية وما كان مقدرا لمصر أن تعود إلى ما كانت عليه فى الماضى من رضا بالذل والإستبداد مع المماليك أو العثمانيين ، خاصة وأن الحملة الفرنسية بصرت الشعب بحقوقه عن طريق العلم كإشتراكه فى الدواوين أو عن طريق القوة كتلك الثورات العديدة التى قام بها ضد المستعمرين الفرنسيين . فعزم الشعب على التخلص من الأتراك والمماليك ومن أساليب حكمهم البالية ، وتصدر لزعامة هذه الحركة رجال صهرتهم التجارب وصقلتهم الأحداث وفى مقدمتهم الشيخ عمر مكرم زعيم مصر الأول ونقيب الأشراف .

هنا وفى هذه الأوقات أخذ محمد على يظهر « فى مسوح الراهب » ويتودد إلى الزعامة الشعبية التى ظلت تقود البلاد حقيقة فى الفترة ما بين ١٨٠١ – ١٨٠٥ وهى الفترة التى كانت أشبه بحالة من الفوضى[1] وقد حدث أن عقد مع الزعامة الشعبية حلفا على أن يكون منفذا لأوامرهم وأن يحكم بالعدل ، ولعل مما دفع الزعامة الشعبية إلى مبايعة محمد على هو حاجتها إلى القوة الحربية التى يعتمدون عليها فى تحديهم لإرادة الدولة ،وترتب على ذلك أن سخط الشعب على الوالى العثمانى « خورشيد » واستطاع أخيرا أن يفرض الشعب إرادته على السلطان العثمانى فتولى محمد على ١٨٠٥ م .

---

(١) محمد ضياء الدين الريس ، الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث ، القاهرة : مكتبة الشباب ، ١٩٦٥ ، ص ٨٦ .

تولى محمد على وفى ذهنه تصورات كبيرة وأحلام واسعة تشجعه عليها ما تتميز به مصر من وفرة فى الخبرات وإمتياز فى الموقع الإستراتيجى وقدرة مصرية على التغيير والبناء .

وكما هو معروف كان محمد على يصدر فى سياسته عن مطامع خاصة ونزعات فردية فقد كان يريد أن يؤسس إمبراطورية على غرار ما صنع الإسكندر وكان هذا محور الكل الأنشطة والأعمال التى قام بها سواء أكانت حروبا خارجية أم إصلاحات داخلية .

ولكى يبنى فلابد أن يزيل أولا العقبات التى تعترض طريقه خاصة وأنه ذو نزعة إستبدادية وقد تمثلت هذه العقبات فى :

١ – المماليك .

٢ – الزعامة الشعبية .

المماليك :

لقد ضاق محمد على بالمماليك ورأى فيهم ما يحد من نفوذه وإنطلاقه فقرر التخلص منهم ، ومع أن نفوذهم كان قد تقلص فهو قد أراد أن يدحرهم كلية ، فدبر مذبحة القلعة الشهيرة فى أوائل مارس ١٨١١ م . ومهما إختلفت الآراء حول الدفاع عن فعل محمد على هذا أو استنكاره فمما لاأشك فيه أنه عمل غير إنسانى . يقول المسيو « جومار » وهو الذى جعله محمد على مديرا لأول بعثة مدرسية مصرية فى فرنسا لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية[1] . على أن هذه المذبحة كان لها أثرها القوى فى حالة الشعب النفسية فقد أدخلت الرعب فى القلوب وكان هذا نذيرا بإنحلال الحياة القومية وفسادها ، وقد حدثت فى وقت كانت فيه النفوس تتطلع إلى مراقبة ولاة الأمور ، ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية « فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذا الروح إلى زمن طويل وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكام ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على إنفراده بالحكم ، فلم يد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو إنتقاء » ومع أن ما أسداه للبلاد من خير فإنه لم

---

(١) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، جـ ٣ ، ص ١١١ .

يعوض الشعب عما فقده من الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية وهما من أركان عظمة الأمم[١] .

الزعامة الشعبية :

وهذه وثيقة الصلة بما سبق فقد أدرك محمد على قوة النفوذ الدينى الذى يمثله العلماء وإتضح له ذلك فى وقفة الشعب من الحملة الفرنسية ومن الوالى العثمانى ، ولأنه أراد الإستئثار بالحكم فقد قرر التخلص من نفوذ العلماء بل وتجميد التعليم الدينى .

ولعل مما ساعده على ذلك هو تفرق العلماء وإختلافهم والكيد بعضهم لبعض يقول الجبرتى فى حوادث أبريل ١٨٠٦ م « وفى هذه الأيام كانت بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك فى أوائل شهر رمضان ١٢٢٠ وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظرأوقافه » .

ولما كان السيد عمر مكرم هو ممثل هذه الزعامة فقد استطاع محمد على أن يستغل هذا الخلاف فى خلع السيد عمر مكرم فصنع مؤامرة بإشتراك الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الدواخلى وناظر المهمات « محمد أفندى طبل » ويقال أن الشيخ عبد الله الشرقاوى كان شريكا فيها فقد كان الشيخ الدواخلى نائبا عنه .

وتمت المؤامرة ونفى السيد عمر مكرم إلى دمياط فى ٩ أغسطس ١٨٠٩ م وما يؤكد النوايا السيئة لهؤلاء الشيوخ هو أن الشيخ محمد المهدى ذهب صبيحة الليلة التى إرتحل فيها عمر مكرم يطلب من الباشا المكافأة على ما قام به فأنعم عليه الباشا بناظر أوقاف الإمام الشافعى[٢] .

ولهذا دلالته من زاوية الفكر الإسلامى فهو يدل على جمود وركود وخضوع لأغراض شخصية وتمسك بمتع الحياة وملذاتها ، كما يدل على عدم وعى وبصر العواقب . لقد عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة ثم نفى ثانية فلم يكن محمد على يطيق وجوده حيث كان يعمل على توجيه الشعور الدينى لمصلحة الجمهور فنفى إلى طنطا ١٨٢٢ م .

---

(١) المرجع السابق ، ص١١٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠

إتجه محمد على بعد إزالة العقبات إلى تنفيذ مطامحه فى التوسع والإنشاء وكانت الوسيلة التى تذرع بها هى الجيش والأسطول ، وبها حرص أولا على أن يحافظ على كيان مصر والبعد بها عن المطامع الغربية خاصة بعد ما شهده من الحملة الفرنسية والإنجليزية . وثانيا – على ضم بعض البلدان إلى مملكته مثل ضم السودان ١٨٢٠ م ، وضم الشام بإعتباره خط الدفاع الأول من ناحية الشرق ١٨٣١ م ، والناظر إلى خريطة الفتوحات يجد أن مملكته قد إمتدت من أطنه شمالا إلى غندكرو بالسودان جنوبا ومن الخليج العربى شرقا إلى حدود برقة غربا .

وقد كانت هذه محاولة لتأسيس وحدة عربية لكنها باءت بالفشل لبعد صاحبها عن الروح العربية ولعدم وجود الوعى القومى اليقظ بالإضافة لسخط الدولة العثمانية وتدخل الغرب وحالة الإستبداد ٢التى فرضها محمد على هذا فضلا عن سياسته الخارجية .

نظام الحكم :

حرص « محمد على » على تنظيم إدارة البلاد وخلق أداة للحكم تمكن – حسب إعتقاده – من السيطرة المباشرة على أمور البلاد ومن هنا جاءت فكرة تأسيس بعض المجالس والدواوين ومنها الديوان العالى أو مجلس الحكومة وإلى جانب هذا الديوان أنشىء ديوان الأشغال وقد تحولت هذه الدواوين إلى نظارات فيما بعد . وفى ١٨٣٤ م تألف المجلس العالى الذى يضم نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء واثنين من التجار واثنين من الأعيان ثم ألف مجلسين آخرين هما المجلس الخصوصى ، وإختصاصاته النظر فى شئون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع المصالح الحكومية والمجلس العمومى بديوان المالية ويتكون من مديرى بعض المصالح والدواوين ورؤساء الأقلام وإختصاصه أن ينظر فى شئون الحكومة التى تعرض عليه ويرسل قراراته إلى المجلس الخصوصى كذلك ألف مجلس الشورى ١٨٢٩ م ويتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء وأعيان القطر وكانت وظيفته إستشارية تتناول مسائل الإدارة والأشغال العمومية وكان ينعقد مرة واحدة فى السنة .

الحالة الاقتصادية :

إرتبطت كل الإصلاحات بإعداد الجيش وبناء الأسطول بإعتبارهما وسيلة لأغراضه ومع ذلك فقد أفادت البلاد منها بصورة غير مباشرة .

لقد كان محمد على أول من قرر ضرورة الإستقلال المالى للإستقلال السياسى فإتجه إلى الإصلاح الاقتصادى .

ففى مجال الزراعة قام بمسح الأراضى ١٨١٢ م وحدد الضرائب وعمل على زيادة المساحة المزروعة فقام بسد بعض المجارى الملحة فى شمال الدلتا مثل ترعة الفرعونية ، وقد ذكرها الجبرتى فى حوادث يناير ١٨٠٩ م كما شق ترعا مختلفة منها ترعة المحمودية ١٨٢٠ م ووضع الحجر الأساسى للقناطر الخيرية ١٨٤٧ م وقد تم العمل فيها ١٨٦١ م وترتب على هذه المشروعات أن زادت مساحة الأراضى حتى بلغت فى منتصف القرن التاسع عشر ضعف ما كانت عليه تقريبا فى أوائل هذا القرن .

وقام بإدخال محاصيل جديدة فعنى بغرس الأشجار المختلفة كما عنى بزراعة نوع جيد من القطن وإتجه إلى زراعة الفواكه وإستحضر بذور التيلة الهندية والأفيون وتوسع فى زراعة العنب مما ساعد على زيادة ثروة البلاد .

على أن محمد على وإن كان قد ألغى نظام الإلتزام فقد استبدل به نظام الإحتكار ذلك أنه كان هو المالك الوحيد للأرض بحيث يحصل كل فرد على ثلاثة إلى خمسة أفدنة مع مده بالبذور والآلات ، ثم يستولى على المحصولات الزراعية كلها ويخصم منها النفقات والضريبة لكيلا يبقى إلا ما يمسك الرمق ، ولم يكن للفلاح حق الملكية بل كان له حق الإنتفاع بالأرض فقط .

وفى مجال الصناعة ، قام محمد على بإنشاء المصانع التى تدار بالآلات وأهمها مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة ومصنع الغزل والنسيج ومصنع الحبال بالقاهرة ومصنع الطرابيش بفوة ومصنع سبك الحديد ببولاق ومصانع السكر فى الوجه القبلى بالإضافة إلى صناعات الصابون والزيت والزجاج وغيرها .

وفى مجال التجارة ، فقد اتسع نطاقها وساعد الأسطول المصرى فى البحر بين المتوسط والأحمر على توسيع نطاق المواصلات البحرية فنشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما وأصلح محمد على ميناء الإسكندرية وأعد – لسير قوافل التجارة – العربات بين السويس والقاهرة وأنشأ به المحطات وكان يرمى من وراء هذا إلى إحياء الطريق القديم طريق مصر والبحر الأحمر .

وإذا نظرنا إلى هذا الإصلاح الاقتصادى من وجهة نظر الشعب فسوف نجد أنه بإتباعه لنظام الإحتكار قد حرم الفلاح والصانع والتاجر من ثمرة جهده وفرض عليه إلتزامات لم يكن بوسعه التخلص منها وهذه السياسة وإن كانت قد عادت على البلاد بالأرباح فترة فإنها قد أثرت أسوأ الأثر فى الأحوال الاجتماعية للبلاد كما أن هذا الإصلاح كان مرتبطا بمشروعاته وبإخفاقها تدهورت أحوال البلاد وإنكمش اقتصادها .

الحالة العلمية :

عنى محمد على عناية بالغة بالتعليم بإعتباره الدعامة الأساسية لكل إصلاح ولم يكن للإصلاح أن يتم ، وللتطور أن يحدث بدون النهوض بالتعليم والتخطيط له وهذا ما فعله محمد على ، إنه يريد جيشا قويا مجهزا تجهيزا حديثا يحاكى الجيوش الغربية ، وهذا كان يتطلب إعدادا علميا متعدد الجوانب من طب وهندسة وكيمياء وغير ذلك وهو يريد الإستقلال الاقتصادى وهذا لا يتحقق إلا بالدراسة العلمية المنظمة من هنا كان الأخذ بسياسة التعليم أمرا ضروريا .

ولما كانت العلمية التعليمية ما زالت تمارس داخل الكتاب والمسجد والأزهر فقد كان لابد أن يحدث محمد على تغييرا جذريا فى الهيكل التعليمى بما يتمشى مع روح العصر وكانت الثقافة الغربية مستقى هذا التغيير ومصدره .

وقد تم الإتصال بالثقافة الغربية عن طريق :

١ - استقدام الأساتذة الأجانب :

غير أنه وجد من الخطأ أن يكثر منهم ، فكثير منهم لم يكونوا يعرفون أغراض الحكومة أو يعرفونها ولكنهم يعملون على إعاقتها والحيلولة دون تنفيذها ، خاصة إذا كانت هذه الأغراض تصطدم بمصالحهم وأطماعهم ، بإعتبارهم ينتمون إلى دول استعمارية ، وقد كان القرن التاسع عشر أقوى مد للتيار الاستعمارى ، هذا بالإضافة إلى صعوبة التفاهم بين الطلاب وهؤلاء الأساتذة لجهلهم باللغة العربية ويمكن القول أيضا بأن نظرة الطلاب الشرقية ذات النزعة الدينية لهؤلاء الأساتذة الأجانب الذين ينتمون إلى دين غير الإسلام قد جعلت محمد على يقل من إستخدامهم ، ومع أنه ذو نزعة تقدمية إلا أنه كان دائما يخشى الإصطدام بالعادات والتقاليد بإعتبارها جزءا من كيان الأمة وجانبا من شخصيتها .

ثم إن الشعب لم يكن قد تهيأ بعد لمثل هذا النوع من الدراسة الغربية بعد أن عاش عشرات السنين بين كتب اللغة والدين وطريقة الحفظ والتلقين لكل هذه الأسباب كان لابد على « محمد على » أن يلجأ لطريق آخر أكثر ضمانا وإتصالا بالثقافة الغربية فكانت البعثات .

٢ – البعثـات :

قام محمد على بإنشاء المدارس والمعاهد العلمية فى مصر ليتلقى فيها المصريين العلوم التى تنهض بالمجتمع المصرى مثل الهندسة سنة ١٨١٦ م ومدرسة الطب التى أسست ١٨٢٧ م والتى إختارت لها الحكومة مائة من طلبة الأزهر وكان يتولى إدارتها كلوت بك ومدرسة الصيدلة التى ألحقت بمدرسة الطب . ومدرسة المعادن بمصر القديمة ١٨٣٤ م ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب ١٨٣٧ م ومدرسة الزراعة بنبروه ١٨٣٦ م والمدرسة التجهيزية بأبى زعبل بالإضافة للمدارس الحربية والبحرية .

لم يكتف محمد على بإنشاء المدارس فقام بإرسال البعثات حتى تضارع مصر أوربا فى مجال التقدم العلمى والاجتماعى .

بدأ يرسل الطلبة لأوربا تقريبا ١٨١٣ م وإتجه أول ما إتجه إلى إيطاليا فقد كان يخشى فرنسا وإنجلترا بعد أن قامت كل منهما بحملة تهدد إستقلال مصر[١] . لكن بعد ذلك أخذ يرسل الإرساليات إلى فرنسا وإنجلترا وبلغ عدد طلاب هذه الإرساليات ٢٨ طالبا .

أما أول بعثة علمية كبرى فقد بدأت ١٨٢٦ م وتألفت من ٤٠ تلميذا ولحق بهم أربعة آخرون فى ١٨٢٨ م .

وفى ١٨٤٤ م أوفدت بعثة كبرى لتلقى العلوم والفنون الحربية تألفت من سبعين تلميذا وفى ١٨٤٧ م أوفدت بعثة صغيرة إلى فرنسا وتألفت من طلبة الأزهر وقد ذهبت لدراسة الحقوق . وقد بلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد على إلى أوربا من ١٨١٣ إلى ١٨٤٧ م – ٣١٩ تلميذا كما بلغ تكاليف هذه البعثات ٣٠٣ ، ٣٦٠ من الجنيهات[٢] .

---

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية : جـ ٣ ، ص ٤٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومن أعضاء هذه البعثات « رفاعة الطهطاوى ، مصطفى بهجت باشا الذى درس الهندسة وكذلك إبراهيم رمضان ومحمد على باشا البقلى فى الطب وكذلك إبراهيم بك النبراوى وأحمد حسن الرشيدى ومحمد بك الشافعى ومن الذين درسوا الفنون الحربية على باشا إبراهيم ومن الذين درسوا الملاحة والعلوم البحرية الأميرال عثمان نور الدين باشا وحسن باشا الأسكندرانى ، ومن الذين درسوا الطبيعة والزراعة أحمد يوسف أفندى وحسنين بك على البقلى وأحمد بك ندا »[١]

والحقيقة أن البعثات كانت تمثل نواة أساسية لحركة اليقظة التى أثمرت فيما بعد فقد أتاحت الفرصة أمام الأعضاء أن يتشربوا روح العصر ويستوعبوه ولا جدال فى أن الإتصال المباشر للأعضاء وإحتكاكهم بشكل عملى أتاح لهم اكتساب قدر كبير من الخبرة أثر فى كل جوانب حياتهم الفكرية والسلوكية التى انعكست بدورها على جوانب المجتمع المصرى فأثرت فيها وغيرت منها ،وإن كان التغير قد حدث ببطء كما أن وقوف الأعضاء على جوانب الحياة الغربية ومقارنتها بأوضاع بلادهم قد بعث فيهم روحا من الحماسة والوطنية تهدف إلى بذل كل الجهود وتوظيف الطاقات من أجل النهوض بالوطن ورفعته .

وإذا كان هناك من أثر للبعثات بالنسبة للفكر الإسلامى فإنها قد حققت المواجهة المباشرة بين الإسلام والحياة الغربية .

ومن هنا كان على أعضاء البعثات أن يدرسوا من منظور العصر – قضايا الإسلام والأحداث المتعلقة به حتى يدفعوا عن دينهم ما يتهم به من رجعية وجمود .

وكان هذا يفترض بذل جهد علمى كبير منهم حتى يعدوا التربة السليمة الملائمة لإحتضان هذه البذور ونموها ، خاصة إذا ما كان الشعب تغلب عليه الأمية ويخضع للعادات والتقاليد .

٣ – الترجمة :

هناك عامل آخر مرتبط بعامل البعثات وكان له أثره فى زيادة الإتصال بالثقافة الغربية وهو عامل الترجمة . عاد المبعوثون إلى أرض الوطن فعنوا عناية كبيرة بالترجمة وقاموا بترجمة أمهات الكتب الأجنبية إلى اللغتين العربية والتركية بهدف تدريسها فى المدارس ،

---

(١) عمر طوسون ، **البعثات العلمية** ، مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية ١٩٣٤ م (فهرس : أسماء ، وتراجم تلاميذ البعثات) .

والنشر والثقافة الغربية ، وقد ساهم السوريون الذين هربوا من الإضطهاد التركى بدور هام فى تنشيط حركة الترجمة ومنهم الأب أنطون روفائيل زاخور راهبة ويوحنا عنحورى وجورج فيدال الحلبى[١] .

ومن أعضاء البعثات الذين اشتغلوا بترجمة الكتب الطبيعية الدكتور إبراهيم النبراوى والدكتور أحمد حسن الرشيدى والدكتور محمد الشافعى ومن الذين قاموا بترجمة الكتب الرياضية والعلوم محمد بيومى الذى قام بالتدريس بمدرسة المهندسخانة[٢] .

أما رفاعة الطهطاوى – وسنخصه بالحديث فى الفصل التالى – فهو رائد حركة الترجمة وهو الذى أسس مدرسة الألسن فى ١٨٣٥ م وكانت تدرس بها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الاجتماعية .

وفى علم الجغرافيا ترجم الجغرافية العمومية وكتاب التعريبات الشافية لمريد الجغرافية وفى السياسة والاجتماع ترجم دستور فرنسا وأحوال الحقوق الطبيعية وكتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر .

وفى الهندسة ترجم ثلاث مقالات من كتاب مبادىء الهندسة لمؤلفه لجندر وفى القانون عرب القانون المدنى الفرنسى وقانون التجارة .

وفى الأدب عرب رثاء فولتير وعرب قصيدة فرنسية سماها « نظم العقود فى كسر العمود » ، وكتاب مواقع الأفلات فى وقائع تليماك .

ومن الكتب التى أشرف على ترجمتها كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء[٣] .

وقد ساعدت المطبعة على نقل هذه الكتب ونشرها . فقد لعبت الدور الأساسى فى ذلك وقد بلغ عددها ثمانية مطابع .

٤ – إنتشار التعليم الأجنبى :

على أن مما ساعد على توثيق المواجهة بين الشرق والغرب وتحقيق التفاعل بينهما تأثرا وتأثيرا – إنتشار التعليم الأجنبى عن طريق الإرساليات الدينية أو الطوائف غير الإسلامية

---

(١) محمد فؤاد شكرى وآخرين ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ١١٠ .

(٣) أحمد بدوى ، رفاعة الطهطاوى ، (مترجماته) ، القاهرة : لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩ .

أو الجاليات الأجنبية ، فقد كانت هناك مدارس للأقباط وهى تشبه الكتاتيب وتعلم الإنجيل بدل القرآن والقراءة والكتابة وقد أنشأ الأقباط مدرستين لتعليم البنات واحدة بالأزبكية والأخرى بحارة السقايين . كذلك أنشأت الجمعية القبطية بالقاهرة مدرسة ثانوية تعلم اللغات الإنجليزية والفرنسية وقليلا من الطليانية والقبطية[١] .

وكان لليهود أيضا مدارسهم التى تسمى « كريميو » وفى عهد إسماعيل صار لليهود أربعة مكاتب بالقاهرة ، إثنان منها للبنين ومثلهما للبنات ، ويتعلم فيها نحو ١٥٥ تلميذا وتلميذة .

وأسست الطائفة الأرمنية مدرسة لها ببولاق على النمط الأوربى ١٨٢٨ م كذلك أسست الجالية اليونانية فى ١٨٤٧ م مدرسة « توستسا » .

أما الإرساليات فقد بدأت بإنشاء الكنائس ثم ألحقت بها المدارس لتوسيع دائرة نشاطها ، ويكاد التعليم الأجنبى فى مصر يكون حرا فى يد جماعة آباء الأرض المقدسة ، وقد فتحت أول مدرسة نظامية عام ١٨٤٠ م – يقوم بالتعليم فيها جماعة الفرير وتحت إدارة الآباء العذاريين وقد إستقل الفرير بمدرستهم فى ١٨٤٧ م ، ومن المدارس التى أسست مدرسة الرحمة لجمعية ديفيل دى لاشارنية فى ١٨٤٤ م[٢] .

وكانت أبرز المدارس التى ساهمت فى التنبيه لتعليم البنات – مدرسة البنات التى افتتحت فى ١٨٣٥ م تحت إدارة « هوليداى » وقد أرسلتها جمعية السيدات لنشر تعليم المرأة فى الشرق . وبعد عشر سنوات من إنشائها تخرجت فيها ٣٠ فتاة قادرة على القراءة والكتابة وكسب العيش بالتطريز وأشغال الإبرة .

وقد لفتت هذه الظاهرة نظر محمد على إلى ضرورة تعليم البنت والخروج بها من سجن الحريم ، فكان يرى أن يبدأ بنشر هذا التعليم فى الطبقات العليا أولا ثم تعمم بعد نجاحها فى أنحاء البلاد ، وبالفعل كان يتردد على قصوره « مس هوليداى ومسزليدر » بهدف تعليم القراءة والكتابة وأشغال الإبرة والتطريز .

وفى عام ١٨٤٠ م أخذ الأمراء يحذون حذو محمد على فكانوا يعهدون بتعليم بناتهم إلى معلمات إنجليزيات وفرنسيات وألمانيات إلى جانب المشايخ .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٦٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧١ .

وواضح أن المواجهة بين الشرق والغرب قد إمتدت حتى شملت تعليم البنت فلم يعد تعليمها شرقيا محضا بل شرقيا أوربيا[١] .

هذا عن أهداف محمد على ، وعن سبل الإتصال بالثقافة الغربية . ونريد فى إيجاز أن نتعرف على ملامح الحركة العلمية ، ومكان التعليم الدينى منها ، أما عن ملامح هذه الحركة فتتلخص فى الآتى :

١ – الإهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية :

فقد إرتبطت هذه العلوم بالتقدم المادى وواضح هذا من البعثات التى أرسلها محمد على للخارج ، فكلها كانت تهدف إلى الإلمام بهذه العلوم حتى يفيد منها فى بناء الجيش ، كما يتضح أيضا من المدارس التى أنشأها مثل مدرسة المعادن عام ١٨٣٤ م ومدرسة الفنون والصنائع عام ١٨٣٩ م ومدرسة الطب البيطرى .

٢ – العناية بالتعليم العسكرى :

وهذا واضح من المدارس الحربية والبحرية التى أنشأها مثل مدرسة سيف ومدرسة اسنا ومدرسة أركان الحرب التى بدأت الدراسة بها فى عام ١٨٢٥ م ومدرسة السوارى التى أنشئت فى عام ١٨٣١ م ومدرسة الطوبجى التى أنشئت فى عام ١٨٣١ م والمدرسة البحرية بالإسكندرية التى كان تلاميذها يتعلمون فى بناء السفن والعلوم المتصلة به وقد بلغ عدد التلاميذ بهذه المدرسة حتى وصلوا إلى مائتين وألف تلميذ[٢] .

٣ – تنشيط حركة الترجمة :

نشطت حركة الترجمة واتسعت دائرتها بحيث غطت كل الفنون والمعارف المختلفة التى كان يحتاج إليها محمد على فى بناء مصر الحديثة وقد أدى ذلك لإنشاء مدرسة الألسن التى لعبت دورا كبيرا فى تطويع اللغة وإتاحة الفرصة للتعرف على معالم الفكر الأوربى الحديث .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤١٧ .

٤ – الإهتمام بالتعليم العالى :

كان محمد على يتعجل النتائج ويريد الوسائل السريعة التى تمكن من إنجاز مهامه وأغراضه ، لذا لم يلق بالا كبيرا للتعليم الأولى وشعار « تعليم العباد » كان شعارا أجوف ولو أنه كان يقصد حقيقة هذا الشعار لإهتم بالتعليم الأولى بإعتباره القاعدة الشعبية . ومما دفع محمد على إلى هذا أنه كان يقصد من التعليم جانبه الوظيفى الذى يمكن من تخريج موظفين يعاونون فى تحقيق مشروعاته .

ولسنا مع ما ذهب إليه الرافعى من إستحسان العناية أولا بالتعليم العالى فهو يقول : « عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات ثم وجه نظره إلى التعليم الابتدائى ، ونعم ما فعل ، لأن الأمم إنما تنهض أولا بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية[1] .

فالإصلاح يجب أن أن يبدأ من القاعدة حتى يكون إصلاحا جذريا وإلا فإنه لا يرجى له بقاء ، وهذا ما قد حدث ، فبإنكماش أغراض محمد على إنهار إصلاحه التعليمى فأغلق العديد من المدارس العالية .

مكان التعليم الدينى :

ارتقى محمد على منصة الحكم وما زال الأزهر وحده مصدر الثقافة والتعليم بالإضافة إلى الدور المتواضع الذى تقوم به الكتاتيب فكان الأزهر أداة التشكيل الفكرى وقد ساعد على ذلك قدمه فى التاريخ وتغلغله فى كيان المجتمع المصرى ، وما تعرض له هذا المجتمع من إعتداءات وسطو ، فكلما كثرت الإعتداءات والمظالم كلما كثرت التمسك به ، ثم إن تيار الرقى لم يكن قد إمتد بعد ليهز ما رسخ منه .

ولأن محمد على كان فى حاجة إلى إصلاح عاجل يتطلب نوعا حديثا من التعليم فقد كان أمامه أحد سبيلين : إما أن يتخذ الأزهر أداته ، أو ينشىء تعليما جديدا . ووجد أنه لا قبل له أن يمس الأزهر بالتغيير وهو له ما له من قداسة فى النفوس دينية ووطنية ، على أنه كان من الصعب أن يتقبل طلابه التغيير وأن يقتنعوا بضرورة تبديل الهدف ، من هنا ترك محمد على التعليم القديم أو التعليم الدينى ممثلا فى الأزهر والكتاتيب يؤدى دوره

(١) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية فى عصر محمد على ، ص ٤٤٠ .

المعتاد ، وإتجه إلى إنشاء تعليم حديث وظيفى تحتكره الدولة وتهيمن عليه بنفسها ، ونجم عن ذلك ظهور هذا الإزدواج التعليمى فالتعليم الدينى من جانب والتعليم الحديث من جانب آخر وقدر للتعليم الدينى أن يعتزل الحياة وأن يعكف على تدريس العلوم الدينية واللغوية عن طريق الحفظ والإستذكار كلما قدر له أيضا أن يجذب إليه أكبر عدد من المتعلمين لأن مدارس التعليم الحديث كانت محدودة كما قدر له أن يتمتع بحرية مطلقة فى مناهجه وفى أغراضه ، بخلاف التعليم الحديث فلم يكن سهلا أن يقبل عليه الشعب وقد إرتبط بالجندية التى تباعد بين المرء ووطنه ، والمصرى بطبعه يحب وطنه ويحن إليه حتى لقد كان عامل الحنين من العوامل التى أدت إلى إعياء جيش لتفشى النسطالجيا أى مرض الحنين للوطن ولقد مات بسبب هذا المرض عدد كبير جدا[١] .

ويصف « بورنج » التعليم فى المعاهد الدينية بأنه قليل الجدوى وأنه يهبط فى مستواه حتى ليبلغ من التفاهة حدها الأقصى[٢] .

ومع ما لكل نوع منهما – التعليم القديم والحديث – من خصائص فقد أثر كل منهما فى الآخر ، أثر الأزهر بطريقة تدريسه القائمة على الجدل والنقاش والحفظ والتلقين وبروحه التى كانت تقف من العلوم الغربية موقف الحذر والتوجس ويكفى أن يجعل محمد على للبعثة إماما يعظها ويهديها ويصرفها عن مفاتن الحياة الغربية ويباعد بينها وبين الإحتكاك بالغرب ، على أننا لا ننسى أنه كان يختار بعض أعضاء البعثات أحيانا من الأزهر .

كذلك أثر التعليم الحديث فى الأزهر ولقد حاول بعض مشايخ الأزهر أن يدخلوا فيه التعليم الحديث مثل الشيخ العروسى الذى فكر فى تدريس بعض علوم الطب والصحة والشيخ حسن العطار الذى أعجب بثقافة الفرنسيين وإتصل بها ، ولا ننسى أنه هو الذى رشح رفاعة الطهطاوى الأزهرى للخارج عام ١٨٢٦ م .

تعقيب :

يقول محمد على إن الصعوبة فى البداية وقد كان علىّ أن أبدأ بدبوس أنبش به أرض مصر وقد توصلت الآن إلى أن أستعين بالفأس غير أنى أريد أن أتمتع بكل مزايا المحراث .

---

(١) محمد فكرى شكرى وآخرين ، بناء دولة مصر ، ص ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، تقرير بورنج ، ص ٦٦٤ .

ويقول : لقد أتيت إلى مصر فوجدت البلاد يسكنها جماعة من المتبربرين لم يكن بها فرد واحد يعرف القراءة والكتابة إنى لم أجد سوى شخص واحد يصلح لأن يكون سكرتيرا لى فبذات كل ما فى وسعى لإدخال المدنية فى البلاد وكنت أعرف أن أوربا أسبق من مصر فى ميدان الحضارة فحاولت أن أنقل إلى هذه علوم تلك .

ويقول : لو أتيح لى أن أكرس نفسى عشر سنوات لإصلاح مصر إذا قدر لى أن أعيش هذه المدة فسوف أحدث فى البلاد تغييرا شاملا .

ويقول : لا تحكموا علىّ طبقا للمستوى العلمى الذى بلغتموه بل وازنوا بينى وبين الجهل الذى يحيط بى فليس فى إستطاعتنا أن نطبق فى مصر الأساليب التى تطبق فى إنجلترا إذ أنكم لم تصلوا إلى الحالة التى أنتم عليها الآن إلا بعد قرون أما أنا فلم يمض علىّ غير سنوات قليلة[1] .

وواضح من هذه الأقوال مدى الجهد الذى بذله محمد على ومدى المقاومة التى واجهته فهناك عموميات يؤمن بها الشعب ويتحمس لها ، وهذه البديلات الجديدة كان لابد لها من فترة طويلة حتى تدخل ضمن إطار العموميات ويتقبلها الشعب لذلك فإن تغييراته السريعة وتعجله لنتائجها قد أوجد نوعا من التخلف الثقافى وعدم تحقيق توازن بين التقدم المادى والتقدم الفكرى .

ومع أن محمد على قد أهمل التعليم الدينى إلا أنه مهد السبيل ليقظة الفكر الإسلامى بطرق غير مباشر نتيجة حرصه على الإتصال بالغرب إتصالا لا خوف منه ولا قلق .

ومع أنه أوجد ثنائية فى التعليم فهذه الثنائية نفسها كانت ظاهرة حميدة حيث جمعت الحضارتين الشرقية والغربية وجها لوجه لكى يحدث بينهما التفاعل ليسفر بعد فترة عن يقظة قومية دينية معا تتوفر لها العوامل التى تساعد على دفعها قويا إلى الأمام .

تعليم المرأة المصرية فى عهد محمد على :

لقد ظل هذا الجانب مرتبطا بالعادات والتقاليد التى دخلت ضمن إطار الدين فلم يكن يصح للمرأة إلا أن تتعلم أمور دينها فقط .

---

(١) من تقرير بورنج .

ولا يمكن أن نغفل مدارس الإرساليات الأجنبية فى التمهيد للدعوة لتعليم البنت فقد إلتحق بها عدد من البنات المصريات ، وقليل منهن مسلمات ومعظمهن قبطيات يتعلمن فيها التطريز والقراءة والكتابة واللغات الأجنبية ، وكانت هذه المدارس هى وحدها الموجودة فى مصر لتعليم البنات[١]

ولقد ظل الكتاب يحتل مكانا مرموقا فى تاريخ التعليم فى مصر وكان النواة التى بنى عليها التعليم فيما بعد ، ومع أنه اقتصر على الصبيان فقد إلتحقت به قلة من البنات وكن محجبات ، وكانت هذه القلة تؤدى الصلاة مما دفع بأسرهن لإحضار شيخة تذهب يوميا للحريم لتعليم النساء الصلاة وبعض الآيات القرآنية ، إلى جانب القراءة والكتابة ، وإلى جانب ذلك كانت البنات تتعلمن أشغال الإبرة والتطريز وكانت الأسر الميسورة تستأجر مدرسة لتعليم البنات تلك الأشغال[٢]

ويذكر « طه حسين » فى كتابه الأيام كيف كانت تتردد فتاة على الكتاب كفيفة تسمى « نفيسة » وكانت أحفظ الصبيان لألوان الغناء والتعديد والقصص . وهذا يدل على أن البنت إلى عهد قريب كانت تتردد على الكتاب .

على أن محمد على – كما ذكرنا – قد جعل من نفسه قدوة حين أحضر مربيات أجنبيات لنساء القصر لتعليمهن أشغال الإبرة والتطريز والقراءة والكتابة .

وكانت المدرسة الوحيدة التى أنشئت فى تلك الفترة هى **مدوسة الولادة** ، وقد أنشئت بعد مدرسة الطب وبعد أن إزداد الشعور بجهل المولدات فلما كان من الصعب إقناع السيدات المصريات بأن يولدهن أطباء من الرجال فقد وجد أنه من الضرورى تأسيس مدرسة لتخريج مولدات متعلمات ، وقد بدأ التفكير فيها فى عام ١٨٣٠ م فقد رأى رئيس إمتحانات مدرسة الطب أن آخر وسيلة لرفع شأن المدرسة إنشاء دروس الولادة وتطبيب النساء والأمراض السرية ، ويقوم بإلقائها الدكتور كلوت بك وليس على الحكومة إلا أن تمده بالتلميذات لا التلاميذ وفقا لتقاليد البلاد .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، **تاريخ التعليم فى عصر محمد على** ، ص ٥٦٣ .

(٢) DARWISH , M .A . , Factors Affecting The Education of Women in Egypt (U .A .R .), Theses , Univereity of London , 1963 .

قد بدأ تأسيس هذه المدرسة بعشر من الجوارى السوداوات الصغيرات اللاتى يسهل جمعهن ، وذلك بعد أن عجزت الحكومة المصرية أن تجد والدا واحدا يقبل إلحاق إبنته بهذه المدرسة رغم أن الدراسة والإقامة والملابس كانت كلها على حساب الدولة .

وقد حاول محمد على أن يرغم الجنود على إرسال بناتهم إليها وفرض عليهم عقوبات لكنهم آثروا العقوبات على إرسال بناتهم .

وقد بدىء بتعليم هؤلاء الجوارى القراءة والكتابة والدين على يد شيخ عالم ثم درسن رسالة مترجمة إلى العربية فى فن التوليد ، وكانت الآنسة جوليت وطبيب مصرى يقومان بالشرح على مثال إنسانى مصنوع .

وعلى مدى ثلاث سنوات أتمت التلميذات الدراسة بها فإلتحقن بمستشفى صغير للنساء بقرب مدرستهن بأبى زعبل يتسع لعشرين سريرا .

على أن تجربة صغار الاماء لم تنجح لعدم ملاءمة المناخ فى مصر لهن وقد أشارت الآنسة جولييت بأن المدرسة لن تقوم لها قائمة إلا بالإعتماد على البنت المصرية نفسها ، وبالفعل زاد عدد تلميذات هذه المدرسة فى أواخر عهد محمد على حتى بلغن ستين تلميذة كلهن من المصريات[١] .

ولما كان المجتمع ينظر إلى خريجات هذه المدرسة نظرة غير شريفة فقد أمر محمد على خريجى مدرسة الطب العليا من الذكور بالزواج من خريجات مدرسة المولدات وكان يقام لذلك حفل كبير يلتقى فيه الأطباء بالمولدات ليختار كل واحد منهم واحدة من الخريجات وكان قرانهم يعقد جماعيا ، وبعد القران ينتقل كل زوجين إلى منزل هيأته السلطات المصرية لحياتهما بالمجان مع منح كل من الزوجين دابة يستخدمها فى تنقلاته .

وكانت الطالبة تمنح عشرة قروش فى السنة الأولى تصل إلى خمسة وثلاثين قرشا فى السنة النهائية بالإضافة إلى الملابس[٢] .

وهكذا فإن جهود محمد على ، ومحاولاته الإصلاحية البناءة ، ورغبته فى بناء مصر بناء عصريا – كانت ذات أثر بالغ فى تحقيق إتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وفى إحداث المواجهة الفكرية بينهما .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٩٦ .

(٢) عمر طوسون ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٩٥ – ٣٠٠ .

obeikandl.com

الفصل الخامس

الطهطاوى وتربية المرأة
(١٨٠١ - ١٨٧٣)

تحدثنا فى الفصل السابق عن رافدين غربيين من روافد التجديد فى الفكر الإسلامى وتربية المرأة وسبيلين من سبل اتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وهما الحملة الفرنسية بما صاحبها من تجديد فى الفكر وتحديث له ، والإتجاه التقدمى الذى أخذ به محمد على والذى كان له اثره فى احتكاك الفكر الإسلامى بالفكر الغربى ، وهنا سنتحدث عن الرافد الثالث من روافد التجديد وهو الأثر الذى أحدثه الطهطاوى فى الفكر الإسلامى والتمهيد للدعوة إلى تعليم المرأة وتربيتها ، وهذا الرافد الثالث هو قسيم لسابقيه ولا يقل عنهما أهمية وخطورة فى خلق الأبعاد المختلفة التى شكلت الإطار العام لحركة التجديد فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر . فالطهطاوى يمثل دعامة أساسية من دعائم النهضة الفكرية الحديثة ، كما يعد الرائد الأول لحركة التأصيل الفكرى الحديث ، وذلك لما قام به من جهود مختلفة تركت بصماتها على الجوانب الفكرية لحياتنا الحديثة .

والحديث عن الطهطاوى لا يغنى الترجمة لحياته أو الالمام بالجوانب الشخصية المختلفة بل سيعنى فقط الإلمام بالأمور التالية :

أولا : مصادره الفكرية التى صدر عنها فى آرائه .

ثانيا : اتجاهاته واجتهاداته الفكرية .

ثالثا : تربية المرأة .

مصادره الفكرية التى صدر عنها فى آرائه :

صدر الطهطاوى فى اتجاهاته الفكرية عن ثلاثة مصادر :

- الثقافة العربية الإسلامية .
- الثقافة الأجنبية .
- مشاهداته وانطباعاته .

الثقافة العربية الإسلامية :

فيما قبل الأزهر تولى تربية الطهطاوى أخواله فأتم حفظ القرآن الكريم ، كما حفظ كثيرا من المتون المتداولة فى المعقول والمنقول ، كما أخذ يتلقى مبادىء العلوم فقرأ بعض الكتب فى الفقه والنحو . وجدير بالذكر أن أخوال الطهطاوى كان منهم العلماء فمنهم الشيخ أو الحسن الأنصارى الذى نظم متن النهج والقطر ، والشيخ فراج الأنصارى الذى تلقى التعليم بالأزهر ، والشيخ محمد الأنصارى وكان أمين الفتوى لمشيخة الأزهر فى عهد الشيخ حسن العطار .

أما فى الأزهر فقد وفد الطهطاوى إليه فى عام ١٨١٧ م وسنه يناهز السادسة عشرة ، ولم يدرك العام الدراسى من أوله ، لذا لم يسر فى دروسه على طريق واحد فأخذ يحضر دروسا متنوعة . وفى العام التالى بدأ ينتظم فى دروسه وكان ذا عزيمة قوية وصبرا على الدرس والتحصيل فألم بأصول الدراسة الأزهرية ، وتلقى العلم على أعلام شيوخ عصره مثل : الشيخ الفضالى الذى قرأ عليه صحيح البخارى ، والشيخ حسن القويسنى وقد تولى مشيخة الأزهر رغم كفاف بصره ، وقرأ عليه كتاب جمع الجوامع فى أصول الفقه ، وكتاب مشارق الأنوار فى الحديث ، والشيخ الدمهوجى شيخ الأزهر وقد درس عليه شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، وكتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى وقد درسه على الشيخ البخارى . ودرس كتاب تفسير الجلالين على عبد الغنى الدمياطى المتوفى بمكة المشرفة ، ولازم الشيخ إبراهيم الباجورى الذى تولى مشيخة الأزهر وأخذ عنه شرح الأشمونى تفسير الجلالين أيضا ودرس على شيخ المالكية الشيخ محمد حبيش مفتى اللبيب . وجمع الجوامع فى الأصول وحضر شرح ابن عقيل على الشيخ الدمنهورى[1] .

---

(١) أحمد أحمد بدوى ، رفاعه رافع الطهطاوى ، ط ٢ القاهرة : لجنة البيان العربى ١٩٥٩ ، ص ١٦ .

وكان أكثر الشيوخ تأثيرا فى حياته الشيخ حسن العطار فقد جمع هذا الشيخ بين العلوم الدينية والدنيوية تلقى العلم على كبار المشايخ كالأمير والصبان ، كما تعلم مبادىء الهيئة والأسطرلاب . وقد أعجب بالعلوم العصرية التى وفدت مع الحملة الفرنسية فأخذ عنهم بعض هذه العلوم وعلمهم اللغة العربية ، وهو الذى قال « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » وكان يعجب مما وصلت إليه فرنسا من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الإستفادة[١] .

وقد ترك العديد من المؤلفات : فى الأدب مثل كتاب إنشاء العطار ، وله فى النحو منظومه وحاشية على شرح الأزهرية ، وله كتب أخرى فى الأصول والمنطق والهندسة والطب والتشريح وقد تولى مشيخة الأزهر من ١٨٣٠ - ١٨٣٤ م[٢] .

وقد اتصل به الطهطاوى منذ دخل الجامع الأزهر ، وأحبه الشيخ لذكائه وجده وأحاطه برعايته ، وكان يشترك معه فى الإطلاع على الكتب العربية غير المتداولة فى الأزهر ، كما كان الطهطاوى يتردد على أستاذه فى منزله ويأخذ عنه دروسا فى التاريخ والجغرافيا والأدب . فكان للشيخ حسن العطار أبلغ الأثر فى توجيه الطهطاوى إلى المصادر الحقيقية للعلم والمعرفة وإلى الجمع بين العلوم الدينية والعصرية ، وعدم الخضوع لهذه الثنائية الثقافية التى شكلت خطأ فاحشا فى مفهوم الثقافة والعلم فجعلت كل فريق يفرح بما لديه .

وقد وقفت أمه بجانبه تعينه على ضنك الحياة ، فباعت حليها وعقارها من أجل أن يتفرغ للعلم . وظلت هكذا حتى بلغ المراد من علمه ، على أنه كان يقوم أحيانا بمساعدة نفسه فكان يعطى درسًا خاصًا كل يوم لحسين بك نجل المرحوم طبوزغلى كما كان يلقى بعض الدروس بمنزل محمد لاظ أوغلى ، وقضى الطهطاوى بالأزهر ثمانى سنوات كان فيها مرجع أخوانه يحل لهم ما غمض عليهم وكان أساتذته يثقون بفهمه وجودة قريحته . ولما أتم دروسه فى الأزهر أجازه شيوخه وسمحوا له بالتصدى للتدريس ، وكان آنذاك قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره فأقبل عليه الطلاب يتعلمون منه فى الحديث والمنطق ،

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٥٩٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر : ط ٢ ، القاهرة : مؤسسة الخانجى ١٩٥٨ م ، ص ٢٩٦ .

والبيان ، والبديع ، والعروض ، وكان دقيقا حسن الأسلوب ، سهل التعبير وممن أخذ عنه الشيخ العزب مفتى المدينة المنورة[١] .

وقد شهد له خاله الشيخ فراج الأنصارى بالعلوم والاجادة ،وكان قد استمع إليه وهو يقرأ « المعجم الوجيز فى أحاديث الرسول العزيز » وعلق على ذلك قائلا : لله درك يا بن الأخت لقد بلغت فى العلم درجة الأعلام ونلت بمساعدة اللغة مرتبة تقف دون وصفها الأقلام .

وظل الطهطاوى يلقى دروسه بالأزهر لمدة عامين ، وفى عام ١٨٢٤ م عين واعظا بالجيش ، وفى عام ١٨٢٦ م أختير إماما للمبعوثين الذين أوفدهم محمد على للدراسة والتخصص فى العلوم الحديثة .

وهكذا أخذ الطهطاوى يستعد للإستقاء من مصدر ثقافى جديد ، وهو المصدر الأجنبى .

ثقافته الفرنسية :

يمثل هذا المصدر المحو الأساسى للإتجاهات الفكرية الحديثة التى تبناها الطهطاوى ودعا إليها كما يمثل المنحنى الثقافى للتحول من الثقافة العربية إلى الثقافة الأوربية . وبهذا المصدر يتحقق التفاعل ما بين الفكر الشرقى المحافظ المنغلق والفكر الغربى المتحرر ، ليسفر هذا التفاعل عن الأخذ بأصول المدنية الحديثة فى ظل الروح الشرقية .

وبدافع من الوطنية والرغبة فى التجديد وتحقيق مواكبة الإسلام لضرورات العصر وتطوراته – أقبل الطهطاوى بكل شغف ونهم على قراءة الكتب الفرنسية فى شتى فنون المعرفة وكأنه أراد أن ينقل كل ما يراه إلى تربة مصر كى يزهر التطور فيها وينمو ، لقد قرأ فى النحو والأدب ، وفى التاريخ والجغرافيا ، وفى السياسة والقانون ، إلى غير ذلك من فنون العلم والمعرفة . قرأ فى النحو أجرومية « تومند » كما قرأ أجرومية أخرى على مسيو شواليه ، وكان معجبا بمنهج الفرنسيين فى النحو كما اتضح ذلك فى كتاب المستشرق الفرنسى « دى ساسى » التحفه السنية فى علم العربية[٢] .

---

(١) صالح مجدى (تحقيق جمال الدين الشيال) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) رفاعه الطهطاوى ، تخليص الإبريز (تحقيق محمود فهمى حجازى) القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م ، ص ٢٢١ .

وفى الأدب قرأ مجموعة « نويل » وديوان « روسو » وفى التاريخ والجغرافيا قرأ كتاب سير فلاسفة اليونان وأساطيرهم ، وسيرة نابليون وغير ذلك ، كما قرأ كتابا يسمى بانوراماالعالم .

ومثل هذه الدراسات كانت جديدة كل الجدة على أزهرى مثله يرى تناول التاريخ ومزاولته ضربا من الاثم والرجم بالغيب ، فقد يعرض ذلك التاريخ للخوض فى سير الصحابة وربما الإنتقاص من قدرهم ، كانت هذه الدراسة جديدة على أزهرى يرى فى الجغرافيا ضربا من الالحاد والزندقة ، فمن الأمور التى تقول بها الجغرافيا كروية الأرض وهذا ما لا يمكن التصديق به .

ولقد أعجب الطهطاوى بهذه الدراسات فأكب عليها دارسا ثم ناقلا لها ومترجما ، وكان مما ترجمه كتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » .

وفى السياسة والقانون اهتم أيما اهتمام بالكتب التى تعالج ذلك لقد عاش بالشرق ووقف على ما بأنظمته السياسية من مساوىء وعيوب وعلى ما اتصف به حكام الشرق من ظلم وإستبداد ، لذا عنى عناية بالغة بنقل هذا الفكر السياسى والقانونى إلى اللغة العربية عله يكون شعاعا يكفل لأبناء الشرق الرؤية الواضحة للحياة من حولهم والحث على العودة إلى الإسلام فى منابعه الصافية الأولى .

ومن الكتب التى قرأها فى هذا الصدد كتاب « مونتسكيو » روح الشرائع وقد قام بترجمة دستور فرنسا وأصول الحقوق الطبيعية إلى الفكر العربى[1] آملا أن يغير هذا الفكر الغربى من حياة وطنه وأسلوب حياته ونظام الحكم .

مشاهداته وإنطباعاته :

ليست الثقافة قراءة فقط وعزلة داخل عام الكتب ، بل إن المشاهدة المباشرة والمعايشة الفعلية للحياة ، وممارسة ألوان النشاط المختلفة وخوض التجارب العديدة – كل أولئك يمثل مصدرًا مهما من مصادر الثقافة . ولا يشك أحد فى أن الرحلات والاحتكاك بالشعوب الأخرى يغير من فكر الإنسان وسلوكه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

والطهطاوى قد أفاد أيما إفادة من هذا المصدر ، وقد ساعده على هذا احساس مرهف ورغبة جارفة فى المعرفة ، وقوة ملاحظة وحضور بديهة تمكنه من الربط بين الأشياء المتفرقة والوقوف على ما هو خلف الشكل والمظهر ، والتأمل فيما يجرى حوله لمعرفة أسرارهوضوابطه ، ولقد كان كتابه « تخليص الإبريز » تجسيدًا حيًا لكل هذه المشاهدات وصورة صادقة لملاحظات الطهطاوى وتأملاته ، وهو فى كل هذه الملاحظات والإنطباعات لم يكن لينسى أبدا وطنه بل كانت دائما تقفز صورته إلى ذهنه عندما يرى شيئًا جديدًا فيأخذ فى المقارنة بين ما رآه فى وطنه وما يشاهده هنا فى فرنسا من رقى وتطور .

وما يهمنا من هذه الملاحظات العميقة هو ما يتصل بموضوع بحثنا وهو :

١ – الحالة العلمية فى فرنسا .

٢ – المرأة الفرنسية .

الحالة العلمية فى فرنسا :

وعن الحالة العلمية ذكر الطهطاوى أن العلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما فى زيادة فلا تمضى سنة إلا ويكتشفون شيئًا جديدًا ، ويتحدث عن مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ، ومن خزائن الكتب الخزانة السلطانية وفيها سائر ما أمكن للفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم ، وعدد ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد ، ومن خزائن الكتب أيضا الخزانة خزانة « مسيو » وتسمى خزانة الأرسنال وبها نحو مائتى ألف مجلد مطبوعة وعشرة آلاف منسوخة ، ومنها خزانة مزارينه وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة وأربعة آلاف منسوخة وفيها خزانة الانسطيطوت أى دار العلوم وفيها خمسون ألف مجلد ومنها خزانة المدينة وهو نحو ستة عشر ألف مجلد ، ومنها خزانة يستان النباتات وفيها عشرة آلاف مجلد ، وفيها خزانة الرصيد السلطانى وبها كتب علم البهيئة ، وفيها خزانة مكتبة الحكمة ، وفيها خزانة اكدمة الفرنسيس وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد وكل هذه خزائن موقوفة .ويقول : فى باريس كثير من الخزائن التى يقال لها خزائن المستقربات .

ويتحدث عن كثير من الجمعيات العلمية ومنها جمعية الفيلوماتيه ، وجمعية حسن الدروس ، والجمعية الأسبانية ، والجمعية الجغرافية ، والجمعية الفرماتينية ، وجمعية

المولعين بالكتب الخزائنية ، وجمعية الخطاطين ، وجمعية المغناطيسية الحيوانية ، وجمعية حفظة آثار القدماء ، والجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وجمعية تحسين الأصواف .

وعن المدارس يتحدث عن المدارس السلطانية التى تسمى الكوليج ، وهى مدارس يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التى تكون وسائل الأمور المقصودة منها .

ويتحدث عن المكاتب مثل مكتب الفروع الفقهية ، ومكتب الغناء السلطانى ، ومكتب اللغات الشرقية ، ومكتب الأرليفولوغى ، ومكتب تعليم النباتات والمعادن ومكتب طب البهائم ، ومكتب الصم والبكم ، ومكتب العميان السلطانى .

وتوجد البنسيونات وعددها حوالى مائة وخمسين بنسيونا ، وفيها يتعلم الصغار الكتابة والقراءة والحساب والهندسة وغير ذلك .

وتوجد الجرسونات ، والدفاتر السنوية ، كما توجد أوض القراءة ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبيه وخاناتهم وتجارات الكتب[١] .

وما ذكره الطهطاوى يوضح لنا إلى أى مدى كان معنيا بالحركة العلمية فى شتى جوانبها . ولعل عنايته بهذه الحركة هى التى أوحت إليه بفكرة تأسيس مدرسة الألسن باعتبارها نواة لحياة ثقافية جديدة فى مصر تتلاءم مع تطورات العصر واتجاهاته .

المرأة الفرنسية :

يتحدث الطهطاوى عن مكانة المرأة الفرنسية وموقف الرجل منها فيقول « ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء وتحت أمرهن سواء كن جميلات أم لا . قال بعضهم إن النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنًا سيئًا أصلا مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فإن الإنسان ولو من الأعيان قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب إقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رؤوس الاشهاد ، وتتلوث فيها الذرية بالفضيحة وإن كانت بدون لعان ولا تعرض للأولاد ، وهذا يقع كثيرا فى العائلات الكبيرة[٢] .

---

(١) تخليص الإبريز (الفصل الثالث عشر : فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

وفى موضع آخر يقول : ... .. « إن باريس جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل ، وذلك أن النساء بها منعمات سواء بما لهن أو بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء ، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلاً ونهارًا على أحجار أرض باريس خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة[١] .

ويوضح « الطهطاوى » مظهرا من مظاهر احترام الرجل للمرأة فيذكر أنه فى أماكن الرقص التى تسمى « البال » تجلس النساء ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء ، وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثَم كرسى خال قام لها الرجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجال ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت[٢] .

الاختلاط بين الرجل والمرأة :

ويتحدث الطهطاوى عن الاختلاط بين الرجل والمرأة فيذكر أنه يحدث فى الأماكن العامة بالمقاهى والبارات والمراقص فيقول : « ونساء الفرنساويات بارعات الجمال واللطافة حسان المسايره والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ويوم بطالتهم[٣] .

ويقول « من المنتزهات المحال المسماة البلوار وهى الأشجار المتصافة المتوازية وبه أيضا تدور النساء اللواتى يتعرفن بالرجال سيما بالليل فهو فى جميع الليالى وفى ليلة الاثنين يحوى كثيرًا من الناس فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه فى ذراعها إلى نصف الليل[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

المرأة والرقص :

ويتحدث عن الرقص كمجال من مجالات نشاط المرأة – فيذكر أنه فن من الفنون يهدف إلى موازنة الأعضاء ، ووقع بعضها إلى بعض وهو يغاير الرقص فى مصر لأن الرقص فى مصر يهدف إلى التهييج وإثارة الشهوات . وأما فى باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا ، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا ، وسواء يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ولا يكفيهن واحد ولا اثنان بل يحبين رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من القلق بشىء واحد ... وقد يقع فى الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده فى خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها بيده ، وبالجملة فمس المرأة أيا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير معيب عند هؤلاء النصارى ، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب[1] .

– المرأة والسفور والزى :

يتحدث الطهطاوى عن السفور والزى فيذكر أن عادة نساء هذه البلاد هى كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين ، ويذكر أن ملابس النساء لطيفة بها نوع من الخلاعة خاصة إذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى فإن حليهن المذهب فى آذانهن ونوع من الأساور المذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف فى أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا ، ولبسهن فى العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو البفت الخفيف ، ولهن فى البرد شريط فروه فيضعنه على رقابهن ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين .

وهن يحتزمن بحزام رفيع فوق ثيابهن حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا .

ومن عادات النساء فى اللبس أيضا أنهن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائمًا معتدلاً لا أعوجاج فيه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

ومن الأشياء التى لم يستحسنها الطهطاوى عدم ارخاء الشعر فهن يجمعن الشعر فى وسط الرأس ويضعن فيه دائما ونحوه .

وفى أيام الحر يكشفن الأشياء الظاهرية من البدن فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدى حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن ، ولكن لا يمكن كشف الساقين بل هن دائما لابسات للشرابات .

ويقول إنه من المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية ، وإنه من الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة[١] .

المرأة ومسألة العفة :

وفيما يتصل بالزى والاختلاط مسألة العفة فيذكر أن العفة لا تأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجَين .

ويذكر أنه فى فرنسا تستولى العفة على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهن الشبهة كثيرا ويتهمن فى الغالب[٢] .

غير أن مفهوم العفة ليس بالمعنى الذى ألفناه ، فالطهطاوى يذكر فى موضع آخر أنه من خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة يمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة ، ومما قاله أهل المجون الفرنساوية « لا تغتر بابا » امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها[٣] .

المرأة والعمل :

والمرأة الفرنسية تشارك فى العمل فيقول الطهطاوى : والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء وأما الأشغال فهى للرجال[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

ويذكر أن أول ما وقع عليه بصره هو قهوة عظيمة والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة ، فالمجتمع الفرنسى أتاح للمرأة أن تعمل وتشارك فى الدخل والإنتاج .

المرأة والعلم :

وعن الناحية العلمية للمرأة : يذكر أن للنساء تآليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال ، « جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها » ، لا يليق بتلك البلاد فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة قريحتها وفهمها وعن معرفتها[١] .

ويقول الطهطاوى إن هناك مدة من السنة تسمى مدة التعطيل أو مدة الفراغ ، والنساء خلال هذه الفترة يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر وينفقن عليه مدة مقره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى معهن من بلاد الافرنج إلى مصر ليرى غرائبها من الأهرام ، والبرابى وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع ٢ الأمور[٢] .

وبهذا صحح الطهطاوى تلك الصورة التى سجلها الجبرتى للمرأة الفرنسية فقد وصفها بالمجون والخلاعة عندما شاهدها تسير مع الرجل متبرجة فى الشارع أو فى المنتزة متجاهلا تلك المزايا العديدة التى منحها التطور للمرأة الفرنسية .

وفى ضوء هذا أيضا بالإضافة للمصادر الأخرى – حدد صورة المرأة المسلمة العصرية فى كتابه « المرشد الأمين » الذى سنعرض له .

رأيه فى المرأة الفرنسية :

أعجب الطهطاوى بالمرأة الفرنسية فى كثير من جوانبها ، وخاصة جانب تعليمها وثقافتها . وقد كان إعجابه بها حافزا له على رسم الصورة الصحيحة للمرأة المصرية المسلمة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

لقد أعجب بهذه المنزلة الكريمة التى تتبوأها المرأة الفرنسية لدى الرجل وأعجب باهتمام الرجل وتقديره لها ، والنظر إليها نظرة المساواة فهى لها من الحقوق ما له وعليها ما عليه من الواجبات ، وفى ظل الاحترام المتبادل تتوفر السعادة للأسرة ، ويتحقق النهوض للمجتمع .

كذلك فإن الطهطاوى فى ضوء هذه الصورة للمرأة الفرنسية قد ارتضى الإختلاط الذى تمليه ضرورة الحاجة للعمل ، وتدفع إليه حتمية المساهمة والمشاركة من أجل الكسب المادى وبهدف التخفيف من أعباء الحياه الإقتصادية .

ولم يعترض الطهطاوى على عمل المرأة بل جعل العمل غاية من الغايات التى يهدف إليها تعليم المرأة ، ورأى أن التعليم سلاح يجب أن تزود به المراة من أجل الإبقاء على كرامتها وإنسانيتها .

ولم يقف الطهطاوى موقف الجامد أو المتزمت ازاء سفور المرأة وإنما نفذ إلى صلب الهدف وهو الحفاظ على العفة ، وليست هذه العفة مرتبطة بستر الجسم أو كشفه بل هى مرتبطة بحسن تربية المرأة وإعدادها إعدادًا سليمًا .

كذلك أعجب الطهطاوى أيما إعجاب بثقافة المرأة الفرنسية والمامها بالمعارف المختلفة وأن جمالها إنما هو فى عقلها لا فى لسانها .

ولكن الطهطاوى لم تبارحه أبدا روحه الإسلامية الشرقية فهو لم يقر ما كان يراه فى حياة المرأة الفرنسية من تبرج وإنحلال بمخالطة الرجال والتردد على مجالس اللهو والمجون .

اتجاهاته واجتهاداته الفكرية :

بعد أن تحدثنا عن مصادر الطهطاوى الفكرية ، نتحدث الآن عما أسفرت عنه هذه المصادر وما أدت إليه من اتجاهات . وحديثنا عن هذه الإتجاهات الفكرية السياسى منها والإقتصادى والإجتماعى – إنما سيكون من منظور الفكر الإسلامى فى صلته بتربية المرأة المصرية ، ذلك إن الفكر الإسلامى يعنى إستيعاب روح العصر وتطوراته فى إطار المبادىء العامة التى قررها الإسلام ووضعها للحياة كتشريع ودستور ، لذا كانت المرونة أساسا للفكر الإسلامى وأحد مصادره الذى يستمد منه وجَوده ، ولذا كان الإجتهاد أبرز سمة عرف بها الفكر الإسلامى ، فهو أداة الطواعية والتطور وسبيل ملاحقة الحياة بل ومواكبتها فى أحداثها المتغيرة .

والطهطاوى عندما يغطى بفكره هذه المجالات المختلفة فإنه بذلك يمهد السبيل أمام المفكرين المصريين ويثير فيهم روح التجديد والتطوير ، ويدفعهم إلى محاولة فهم العصر فى ظل الإطارالإسلامى العام بكل جوانبه السياسية والإقتصادية والإجتماعية والتربوية .

ولم يكن للفكر الإسلامى أن يقف عند جانب معين من جوانبالحياة ، بل هو يمتد ليشمل كل جوانبها وأبعادها ، إن الطهطاوى بفكره هذا الذى يقرره وينادى به ويعمل على ترسيخه –ليمثل هزة عنيفه فى تلك العقول الجامدة الضيقة ، كما يمثل دعوة إلى طلاقة الفكر ورحابة الأفق ، وتربية المرأة إن هى إلا مظهر حى لنشاط الفكر الإسلامى الشامل ومثل واضح لحيويته ومرونته .

وتتمثل الإتجاهات التى ستناولها فى الآتى :

١ – الإتجاه السياسى .

٢ – الإتجاه الإقتصادى .

٣ – الإتجاه الإجتماعى .

٤ – الإتجاه التربوى .

الإتجاه السياسى :

عرض الطهطاوى لهذا الإتجاه فى أكثر من كتاب ، لقد تناوله فى كتاب « تخليص الإبريز » وفى كتاب « مناهج الألباب » وفى كتاب « المرشد الأمين » .

وهو فى تناوله لهذا الإتجاه قد يكون مقصده الحديث عن السياسة أو الإدلاء ببعض التعليقات على ما يرويه من سياسةالدول .

لقد كان الطهطاوى ميالا إلى النظم الحرة والأخذ بالأسلوب الديمقراطى وتطبيق مبدأ سيادة القانون ، ولعل هذا ما دفعه إلى ترجمة دستور فرنسا وما أدخل عليه من تعديلات حتى يطلع أبناء وطنه على الصورة الصادقة لما يجب أن يكون عليهاالحكم .

وفى هذا الإتجاه تحدث عن :

النظرية السياسية – الحقوق المدنية .

النظرية السياسية :

يرى الطهطاوى أن الدولة تقوم على ركنين أساسيين هما الحاكم والمحكوم ، والعلاقة بينهما هى العلاقة المكونة للدولة باعتبارها نظامًا سياسيًا . ووجود النظام السياسى ضرورة حضارية فلا تستقيم الحياة فى المجتمع الإنسانى دون وجود سلطة حاكمة ، ووجود هذه السلطة أساس انتظام العلاقات بين الأفراد فى الدولة ، فهو يقول « لولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ، ولا الحاكم الشرعى والسياسى على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ، ولا الصانع على صناعته ، ولا التاجر على تجارته ، ولولاه لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور[١] .

وفى تحليله لطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم يرى أنها يجب أن تنظم فى ظل الدستور ، فالفرد كما رأى « روسو » تنازل عن جزء من حريته من أجل نظام الجماعة ، وقد وجد الطهطاوى فى الميثاق الدستورى الفرنسى منهجا لتحقيق العدالة رغم أنه ليس من كتاب الله ولا سنة رسوله ، وقد أثبت أن الأصول العامة لهذا الميثاق لا تناقض الأصول العامة للحكم الإسلامى يقول « من زاول علم أصول الفقه ... جزم بأن جميع الإستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدينة إليها وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدينهم وأحكامهم قل أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية ، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهى عبارة عن قواعد عقلية تحسينا وتقبيحا يؤسسون عليها أحكامهم المدنية ، وما نسميه بفروع الفقه عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية »[٢] .

وكان الطهطاوى من أوائل الذين كتبوا باللغة العربية عن أنواع الحكومات فذكر الحكومة المونارخية أى واحدة الحاكم ملوكية كانت أو سلطانية ، وذكر الحكومة الجمهورية وكان أول من استخدم مصطلح الديمقراطية[٣] .

---

(١) رفاعه الطهطاوى ، مناهج الألباب ، ص ٢٣٢ .

(٢) رفاعه الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ط ١ ، القاهرة : مطبعة المدارس الملكية : ١٢٨٩ هـ ، ص ١٢٤ .

(٣) محمود فهمى حجازى ، أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م ، ص ٤٥ .

وتحدث عن أنواع السلطات فذكر أن هناك سلطات ثلاثا : السلطة التشريعية وهى سلطة تقنين القوانين وتنظيمها ، والسلطة القضائية التى تشرف على تنظيم هذه القوانين ، والسلطة التنفيذية وهى التى تتولى تنفيذ القوانين ، وكل السلطات ترجع إلى رئيس الأمة باعتباره القوة الحاكمة العمومية ، وذكر أن الحاكم يستمد نفوذه من الشعب ، فالشعب هو صاحب التفويض .

الحقوق المدنية :

تحدث الطهطاوى عن الحقوق المدنية وعرفها بأنها حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض ، وهى حقوق ليست منحة من الدولة بل حقوقا تضامنية بين المواطنين لحفظ أملاكهم وأموالهم ومنافعهم ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم محافظة ومدافعة ، والحقوق المدنية تشمل : المساواة – الحرية .

المساواة : وهى تعنى عند الطهطاوى المساواة أمام القانون مهما كانت المكانة الاجتماعية ، فالكل أمام القانون سواء فى الحقوق والواجبات .

الحرية : وهى فى رأيه أساس الحقوق جميعا ، وهى تنقسم إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ،وحرية مدنية ، وحرية سياسية .

ويقصد بالحرية الطبيعية تلك الحرية التى خلقت مع الإنسان وانطبع عليها ، وبالحرية السلوكية تلك التى تعنى بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، والحرية الدينية القصد منها حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط ألا تخرج عن أصل الدين ، والحرية المدنية يقصد بها حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدينة بعضهم على بعض ، فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء الحقوق بعضهم لبعض ، وأن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين أن يساعدهم على فعلهم كل شىء لا يخالف شريعة البلاد وأن لا يعارضوه . والحرية السياسية أى الدولية يقصد بها تأمين الدولة لكل واحد من أهالى البلد على أملاكه الشرعية المرعية وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى جزء منها .

والحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك[1] .

---

(١) رفاعة الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

والإتجاه السياسى هذا الذى اختطه الطهطاوى كان نواة لدعوات الإصلاح فيما بعد وخاصة دعوة إصلاح المرأة ، وذلك بمساواتها بالرجل وتمتعها بحقوقها السياسية فى ظل المبدأ العام للحياة السياسية وهو مبدأ الديمقراطية ، والإيمان بحق كل مواطن رجلا كان أو امرأة فى إبداء الرأى فى السياسة التى تنتهجها الدولة والمشاركة فى تنفيذها ، والإعتراف بدور المرأة فى النهوض والإرتقاء بالمجتمع .

وعليه فقد كان على التربية أن تأخذ بهذا الإتجاه فتضع ضمن أهدافها تربية المرأة تربية ديمقراطية وإعدادها للحياة الحرة الكريمة بدل أسلوب البطش والكبت والإرهاب التى عانت منه المرأة كثيرا فى العصر العثمانى والذى حال بينها وبين التعليم .

فالطهطاوى عندما كان ينقل هذا الفكر السياسى الغربى ، وعندما كان يبذل هذه الجهود الضخمة فى النقل والترجمة ، فإنما كان يبصر الشعب بحقوقه السياسية غير متجاهل لدور المرأة وقدرتها على المشاركة والمساهمة . إنه وضع البذرة السياسية وترك لمن أتى بعده أن يتعهد هذه البذرة بالعناية والرواء حتى تثمر حياة سياسية ديمقراطية سليمة فالنشاط السياسى الذى تمارسه المرأة المصرية اليوم يرجع فى جذوره الأولى إلى فكر الطهطاوى الذى استوحاه من الفكر الإسلامى أولا والفكر الغربى الذى أثار إعجابه وحماسته للنهوض ثانيا .

الإتجاه الاقتصادى :

فى هذا الإتجاه إهتم الطهطاوى بقضية العمل ورأس المال وبالعلاقة بين الإنتاج والخدمات وبدور الدولة فى الحياة الاقتصادية .

بالنسبة لقضية العمل ورأس المال يرى أن العمل ورأس المال هما دعامتا الإنتاج ، فإذا كانت ثورة الأفراد تقاس بما يملك كل منهم فإن الثورة العامة لا توجد إلا بالعمل ، فالعمل هو القيمة المضافة إلى رأس المال الدائم وهو سر تمايز الدولة على دولة أخرى ، فقد تتوفر الإمكانيات لدى الدولة لكنها تكون متخلفة لأنها لا تعمل ، فمنبع الثروة والغنى هو العمل .

والطهطاوى حين يتحدث عن رأس المال فهو لا يقصد به جمع الثروة لذات الجمع بل جمع الثروة من أجل زيادة الإنتاج .

بالنسبة للعلاقة بين الإنتاج والخدمات فهو يرى أن الإنتاج يتوقف على العمل وهو دالة التقدم الحضارى ، أما الخدمات فلا تعد من الأعمال الإنتاجية وإن كانت ضرورية لتنظيم العمل الإنتاجى .

وعن دور الدولة فى الحياة الاقتصادية يرى أن الدولة الحديثة لم تنشأ إلا بعد إنهيار النفوذ الاقطاعى ونهاية نظام الإلتزام ، وأوضح الطهطاوى رأيه فى هذا يبحث طبيعة العلاقات الاقتصادية السائدة فى ظل نظام الاقطاع وأثرها على إنهيار هذا النظام من آثار بالنسبة للأفراد أو الدولة ، يقول الطهطاوى : « وفى الأزمان السالفة قبل تقدم الجمعية فى البلاد الأوربية وقبل أخذها من التمدن بالحظ الأوفر .. كان أكثر أهالى حكومتها ملتزمين وأمراء كبارا مستغلين بتملك الدوائر البلدية والأراضى الزراعية يملك الواحد منهم القسم بتمامه ويستبد فيه برأيه ، وتنفيذ أحكامه ، ويدفع خراجا مقررا لرئيس الحكومة الكبيرة ... مثلما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك[1] .

إن ما قرره الطهطاوى من آراء اقتصادية تتناول رأس المال والعلاقة بين الإنتاج والخدمات ، ودور الدولة فى الحياة الاقتصادية – كان شعاعا بصر من جاء بعده بالطريق فقد أخذ المصلحون فيما بعد ينادون بخروج المرأة لساحة العمل خاصة وأن التطور الحديث وما نجم عنه من أعباء ومشاكل اقتصادية كان لها أثرها فى حياة الأسرة والمجتمع – قد أملى على المرأة أن تساهم بقدراتها وإمكاناتها ، وألا تكون نصفا مشلولا فى كيان المجتمع .

ولقد ذكر الطهطاوى – فى ضوء ما رآه فى فرنسا – حق المرأة فى العمل ، وقد سبق أن قلنا أن العامل الاقتصادى فيما مضى كان سببا فى تخلف المرأة وإعاقتها عن التعليم .

لكن المرأة اليوم قد تخلصت من القسر الاقتصادى فتحررت إرادتها وملكت أمر نفسها وأكدت ذاتها ، فغشيت كل مجالات العمل عن طريق تعليمها وتثقيفها ، وأصبحت قادرة على أداء دورها – فى حدود طاقتها – إزاء أسرتها وإزاء مجتمعها .

---

(١) رفاعة الطهطاوى ، مناهج الألباب ، محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ، الجزء الأول ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

وهكذا فإن الفكر الاقتصادى الذى حدد معالمه الطهطاوى كان فكرا غربيا داخل إطار إسلامى ، وكان إجتهادا رائدا للتوفيق بين ما يقرره الإسلام فى مبادئه الاقتصادية العامة وبين منطق العصر كما رآه فى فرنسا .

الإتجاه الاجتماعى :

تناول الطهطاوى فى هذا الإتجاه النقاط التالية :

التطور الإجتماعى :

عرض الطهطاوى لقضية التطور الاجتماعى تحت اسم « التمدن » مدفوعا إلى ذلك بضرورة تغيير الشرق ، ولم يحاول أن يتصور مصر أو الشرق قطعة من أوربا بل حاول أن يتبين الأسس الحضارية التى يمكن الإفادة منها .

وهو يرى أن التقدم يعتمد على جانبين : التقدم المادى ، والتقدم المعنوى ، ويقصد بالتقدم المادى التقدم فى المنافع العمومية والصناعة والتجارة ، وهو جانب له أثر واضح فى تغيير الحياة الاجتماعية وتطور المجتمع ، ويقصد بالتقدم المعنوى التمدن فى الأخلاق والعوائد والتمسك بالدين والشريعة ، وللدين هنا وظيفة سلوكية تحقق السلوك الحضارى للفرد .

وواضح هنا أن الطهطاوى يفسر التطور الاجتماعى فى ضوء الجوهر الحقيقى للإسلام ، فالإسلام عقيدة وشريعة ، عقيدة معنوية توجه السلوك وشريعة تجسد العقيدة وتجعلها واقعا حيا .

ويؤكد الطهطاوى ضرورة تكامل الجانبين وتلازمهما ، وهذا ما تدعمه الدراسات الحديثة فالثقافة جانبان أحدهما مادى والآخر معنوى ويرى « أوجبرن » أن الثقافة من حيث المحتوى تشمل القسم المادى أى النتاج المادى للإنسان ، والقسم اللا مادى الذى يشمل العادات والتقاليد والأخلاقيات والأفكار ، والملاحظ أن العنصر المادى والعنصر اللا مادى للثقافة يتفاعلان معا .

وهناك فرق أساسى بين التمدن بإعتباره تغيرا حضاريا وبين تغيير الزى أو المظاهر الخارجية لحياة الأفراد بإعتبارها عرفا والتمدن ليس فى عرف الملابس بل هو فى الجانبين المادى الاقتصادى والمعنوى السلوكى .

دور الفرد فى التقدم الحضارى :

يؤكد الطهطاوى على أهمية الدور الإيجابى للفرد فى التطور الحضارى ، فالواجب على كل فرد أن يعين الجماعة بقدر الإستطاعة ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه ، ويرفض الطهطاوى السلبية فيقول : « ليست الفضائل إعداما بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم ، وفى المعاملات ، وضروت الاجتماعات ، السخاء فرع من وجود مال بيد الإنسان إستفاد بالمخالطة حسن صرفه فى الخير .

وينادى الطهطاوى بمبدأ التكافل الاجتماعى فإذا كان هناك من أعضاء المجتمع من لا يقوى على الكسب لمرض أو شيخوخة فإنه من الواجب أن توجد مؤسسات تنهض بسد حاجات هؤلاء والقيام بشئونهم ، وهنا يرى أن الدولة وحدها لا تستطيع القيام بهذا العبء ، ولذا يجب أن يعينها على الواجب جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة .

التركيب الطبقى :

ويتحدث عن التركيب الطبقى فى خاتمة كتاب مناهج الألباب ، فيقسم أهل الوطن إلى أربع طبقات : الطبقة الأولى ولاة الأمور ، والطبقة الثانية طبقة العلماء ، والطبقة الثالثة الغزاة ، والطبقة الرابعة أهل الزراعة والتجارة والصناعة ، وقد تحدث عن عمل كل طائفة وواجباتها وحقوقها وصفاتها ، ودعا إلى ضرورة التعاون بين كل الطبقات من أجل مصلحة الوطن .

هذا الإتجاه يمثل البعد الثالث للإتجاهين السابقين ولقد كان أيضا مصدرا لدعوات الإصلاح الاجتماعية الخاصة بالمرأة ، فدور الفرد فى المجتمع وضرورة التعاون بين طبقات المجتمع والعمل على تقدم المجتمع والنهوض به – كلها محاور دارت عليها هذه الدعوات .

ولا يستطيع أحد أن ينكر دور المرأة فى المجتمع وهى التى تبنى الجيل وتصنع الرجال بالإضافة إلى دورها فى الحياة العامة ووقوفها جنبا إلى جنب مع الرجل تخفف من أعباء الحياة الاقتصادية وتشارك فى البناء والرقى .

كذلك أيضا فإن التطور قد فرض ضرورة التعاون بين طبقات المجتمع فلا يمكن أن تسير الحياة سيرتها الطبيعية وأن يتحقق الرقى بدون التعاون بين الرجل والمرأة ، فالمرأة تشكل نصف المجتمع وتعطيل طاقتها هو إضعاف لطاقة المجتمع وسلب لقواه .

والمرأة اليوم تستطيع بتربيتها وتعليمها أن تؤدى العديد من الخدمات الاجتماعية كمحو الأمية وتنظيم الأسرة ومزاولة التمريض وغير ذلك من الخدمات التى تعمل على النهوض بالمجتمع والرقى به .

فإتجاه الطهطاوى الاجتماعى كان – إذًا – نواة للنهضة الاجتماعية التى نشاهد آثارها اليوم ، ولقد كان إتجاها قائما على التوفيق بين الفكر الغربى وما حققه من تطور وبين المبادىء الإسلامية الاجتماعية السامية التى تخلت عنها الحكومات الإسلامية فى عصورها المتأخرة حتى ضعف المجتمع وتخلف المسلمون .

الإتجاه التربوى :

لا يمكن القول بأن للطهطاوى – نظرية متكاملة فى التربية ذات أسس فلسفية متماسكة أو ذات أبعاد فكرية متناسقة ومترابطة ، وغاية ما يمكن قوله أن آراء فى التربية تعكس ملاحظاته العديدة وقراءاته المتنوعة وهذه الآراء وإن كان يعوزها الترابط وينقصها التماسك إلا أنها آراء قد تتصف بالعمق وبعد النظر فى مجملها .

على أنه يمكن تصنيف هذه الآراء المختلفة ونظم شتاتها فى الآتى :

١ – مفهوم التربية .

٢ – فلسفة التربية وهى تضم النقاط التالية :
مفهوم الطبيعة الإنسانية – الأهداف التربوية العامة – أنواع التربية .

٣ – نظام التعليم ويشمل النقاط الآتية :
النظام التعليمى والمجتمع – مراحل التعليم – تأنيث التعليم –التغذية .

٤ – الميول والإستعداد ويشمل الأتى :
التربية والذكاء – الإستعداد ومبدأ النواب والعقاب – أثر التنافس فى التحصيل – العلاقة بين المعلم والمتعلم .

مفهوم التربية :

عرف الطهطاوى التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية وطريق تهذيب النوع البشرى ذكرا كان أو أنثى على طبق أصول معلومة يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ويتخذها عادة وتصير له دأبا وشأنا وملكة[١] .

وما نلحظه فى هذا التعريف أنه أطلق على التربية مصطلح « فن » لا علم ، والفرق بين المصطلحين له دلالته البارزة ، إذ الفن عمل وممارسة ، أما العلم فهو أسس وقواعد ، والتربية ليست علما فقط بل هى فى المقام الأول فن وخبرة ودراية تتطلب إستعدادا معينا وقدرات خاصة فليس كل عالم مربيا وليس كل علم تربية ، فالتربية عملية متكاملة ينضج من خلالها الفرد فى جوانبه المختلفة الحسية والعقلية والإنفعالية .

كما نلحظ أيضا فى هذا التعريف استيفاءه لأبعاد التربية الحسية منها والعقلية والشعورية ، وهذا ما تنادى به كتب التربية الحديثة وعندما نتحدث عن الخبرة فنحن نتحدث عنها بإعتباره الموقف المتجدد المستمر الذى يراعى فيه جوانب الفردالمختلفة ، والخبرة المربية هى التى تكفل نمو هذه الجوانب .

ونلحظ أيضا فى التعريف أن للتربية أصولها المعلومة التى تتناول المنهج والمعلم والمتعلم .

ونلحظ فى التعريف أيضا أنه حدد وظيفة التربية بالنسبة للفرد فهى تعمل على اكساب الطفل المهارات المختلفة التى تمكنه من التكيف مع الجماعة .

فلسفة التربية :

الطبيعة الإنسانية :تشكل قضية الطبيعة الإنسانية أهمية خاصة فى مجال الفلسفات التربوية بإعتبار أن الطبيعة الإنسانية هى محور كل الدراسات التربوية المختلفة وغايتها .

والطهطاوى عرف الإنسان بأنه الحيوان الناطق الذى يتميز عن الحيوانات الأخرى بالحواس الباطنة ويشرف هيكله ويتناسب أعضائه وأوضح أن أهم ما ميز به الله الإنسان هو العقل الذى هو آلة الفكر وأداة النظر فالعقل يربط الأسباب بالمسببات ويميز الحسن من القبيح ، وتحدث عن العلاقة بين العقل والوجدان ، وعن الوجدان يتولد الرضا

(١) رفاعة الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ص ٥ .

والغضب واللذة والألم والفرح والترح ، وإذا كان الله تعالى قد ميز الإنسان بالعقل فقد ميزه أيضا بقوة الإرادة وعرفها بأنها الميل النفسى للفعل والترك .

ومن ذلك خلص إلى أن الإنسان يتكون من : الجسم – العقل –الوجدان .

وهو يذكر أن الإنسان اجتماعى بطبعه يقول : « وإذا أمعناالنظر .. فى تنظيم بنية الإنسان وتركيبه القويم ...وتأملنا أوصافه الجسمية وفضائله العقلية – تبين لنا أنه مخلوق من أصل فطرته بعقله وحسه لأن يعيش بالتأنس والاجتماع مع أبناء جنسه ، وأن قوته البشرية تميل إلى الإحتياج إلى غيره ، وأنه إذا لم يجتمع بالتأنس والاجتماع مع أمثاله كان أضعف من الحيوان[١] .

وبهذا البيان حدد الطهطاوى مجالات التربية ، وأوضح ميادينها التى تهدف فى النهاية إلى إعداد المواطن الصالح بتربية جوانبه المختلفة : الجسم والعقل والوجدان .

الأهداف التربوية العامة :

لمس الطهطاوى هذه الأهداف لا بشكل علمى دقيق قائم على دراسة أوضاع المجتمع وفلسفته ، وإنما تناولها من خلال هدف عام مؤداه أن التربية هى التى تخلق المواطن المخلص فى حب الوطن الذى يفديه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ويفديه بروحه ، إذ يجب أن تكون نية أبناء الوطن متجهة دائما إلى الفضيلة والشرف فلا يرتكبون شيئا يخل بحقوق أوطانهم[٢] .

وقد أيد ما ذهب إليه ببعض الأدلة التاريخية التى وقف عليها من خلال قراءاته ، فيستشهد بالرومان ويذكر أنهم كانوا يجبرون من بلغ العشرين عاما أن يقسم على الدفاع عن وطنه وحكومته .

ويوضح الطهطاوى أن هذا الهدف يجب أن يكون هدفا للجميع ذكورا وإناثا ، لقد كتب يقول : « وحسن تربية الآحاد ذكورا وإناثا وإنتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن

---

(١) المرجع السابق (ضمن الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة) بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط ١ ، ١٩٧٣ م ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

تربية الهيئة المجتمعة يعنى الأمة بتمامها ، فالأمة التى حسنت تربيتها هى الأمة السعيدة التى لا تخشى أبناءها على أسرارها[١] .

أنواع التربية :

ويتحدث عن أنواع التربية ويذكر أنها ثلاثة أنواع :

١ – تربية النوع البشرى : ويعنى بها تربية الإنسان من حيث هو إنسان يعنى تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية .

٢ – تربية أفراد الإنسان : يعنى تربية الأمم والملل .

٣ – التربية العمومية .

ويرى الطهطاوى أن النوع الثانى لا يتأتى إلا بأحكام الدين الواجب معرفتها على كل إنسان ، ومصدر هذه التربية هو الكتاب والسنة وبصائر العقول وعدم الخضوع للعادة والعرفالمألوف إذا كان يتعارض مع الدين ، وهذا ضرورى لتحقيق الهدف العام للتربية وهو خلق المواطن الصالح .

والملاحظ أنه ينوه هنا بأهمية التربية الدينية ويراها تربية للأمة فهو لا يبهره بريق الغرب بما أحرزه من تقدم ورقى بل يرى أن أساس الرقى إنما هو فى اللجوء للدين والتمسك به ، فالقرآن الكريم « جامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول مع ما إشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظم أحوال الخلق كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحل به الغرض كالبيع والاجارة والزواجوأصول أحكامها ، فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى[٢] .

ويقصد بالنوع الثالث من أنواع التربية التعليمات العمومية التى يتعلمها الذكور والإناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر مجامع المعارف التى يجتمع للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين .

---

(١) المرجع السابق ،ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ .

نظام التعليم :

النظام التعليمى والمجتمع :

ذكر الطهطاوى أن النظام التعليمى يتأثر بطبيعة المجتمع الذى يكون فيه هذا النظام ، فإذا كانت البلد عسكرية فإن التعليم يميل لهذا الجانب « وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك – كان مدار التربية الصحيحة للأولاد مبينا على ذلك ، وفى هذه الخصوصيات جميعها الإستعدادية تلاحظ المعارف العمومية التى يشترك فيها جميع الأمم والملل .

مراحل التعليم :

تناول أيضا مراحل التعليم وحددها بثلاث مراحل : التعليم الأولى الابتدائى ، والتعليم الثانوى التجهيزى ، ومرحلة تعليم كامل إنتهائى .

وذكر أن التعليم الأولى عام لكل الناس غنيهم وفقيرهم ، ذكورهم وإناثهم ، وهو عبارة عن تعلم القراءة والكتابة فى ظل تعليم القرآن الشريف وأصول الحساب والنحو ، ويوضح أهمية هذا النوع من التعليم للمجتمع فهو الذى يحسن حال « الهيئة الاجتماعية » ويرفع من مستوى أرباب الكارات والحرف الصناعية فإن الصانع مثلا إذا تعلم ذلك سهل عليه بقراءة كتب صنعته أن يشتغل أشغالا جيدة بالمراجعة[١]

وكان الطهطاوى أول من نادى بضرورة هذا التعليم ويرى أنه كالخبز والماء للإنسان[٢] .

ويقف الطهطاوى وقفة قصيرة عند طريقة التدريس فى هذه المرحلة فيرى أنه يجب أن يسلك المعلم أقرب الطرق وأيسرها للتعلم ، وكذلك الأستاذ الماهر فى الصنائع والحرف يجب أن يسلك طريق السهولة مراعاة لأولاد الفقراء والمتوسطين لأن وقتهم محسوب على آبائهم الذين هم فى الغالب فقراء .

أما التعليم الثانوى فيذكر عنه أن الأهالى لا يهتمون به ، وأنه يجب على الحكومة أن ترغب الأهالى وتشوقهم فى هذا النوع ، فبه يكون ترقى الأمة فى الحضارة والعمران ويذكر أن أنواعه كثيرة فهو يشمل العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ،

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

والمنطق ، وعلم المواليد الثلاثة ، والطبيعة والكيمياء ، والإدارة الملكية ، وفنون الزراعة ، والإنشاء ، والمحاضرات ، وبعض الألسنة الأجنبية التى يعود نفعها للوطن أما درجة العلوم العالية فهى إشتغال الإنسان بعلم مخصوص يتجر فيه بعد تحصيله علوم المبادىء والتجهيزات كعلم الفقيه والطبيب والجغرافى .

وهنا يتناول نقطة فى غاية الأهمية وهى ضرورة التضييق فى هذا النوع من التعليم والاقتصار فيه على إناس قلائل ، « بمعنى أن كل من طلب الإشتغال بالعلوم العالية لابد أن يكون صاحب ثروة أو يسار ، ويكون يساره مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والإعتبار بحيث لا يضر تفرغه بالمملكة ، فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتبع فيه الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل دائرة معالى المعارف[1] .

وأهمية هذه الملاحظة لنا أننا نعيشها الآن فقد أصبح التعليم العالى مجانا ومتاحا للجميع ، ومع إزدياد السكان الرهيب أصبحنا نعانى تكدسا فى الأعداد وقلة الإمكانيات وفائضا فى الخريجين مما أدى إلى عدم وضع كل فى مكانه المناسب ، هذا بالإضافة إلى نقص الخبرة وعدم الإعداد السليم ، أما المدارس المهنية أو التعليم الفنى فقد إنصرف عنه الطلاب لنظرة الإستهانة التى ينظر بها إلى خريجى هذا النوع من التعليم .

ولعل الطهطاوى بثاقب فكره قد استطاع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث فى ظروف مماثلة لظروف عصره .

حسن التغذية :

ومن الأشياء الطريفة التى لفت الطهطاوى النظر إليها حسن التغذية ، فقد عقد فصلا لذلك بعنوان « ينبغى لطالب العلم المشتغل به أن يصفى ذهنه بأكل طيبات الرزق » ، ويستشهد بذلك أن مالك بن أنس رضى الله عنهما – كان يأكل فى كل يوم لحما بدرهمين .

وما ننادى به اليوم من الوجبة الغذائية للتلاميذ قد سبق إليه الطهطاوى منذ القرن الماضى ، ولا يخفى على أحد ما لهذا الأمر من أهمية فى رفع مستوى العملية التعليمية وبخاصة بين تلاميذ المرحلة الابتدائية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

تأنيث التعليم :

يتحدث الطهطاوى كذلك عن تأنيث التعليم فى المرحلة الأولى فيقول : « ففى أوائل حداثة الأولاد ذكورا أو إناثا ينبغى إتاحة تربيتهم بالنساء[١] .

وهذا ما تنادى به الآن بعض الإتجاهات التربوية الحديثة التى ترى فى المدرسة إمتدادا للمنزل فى المرحلة التعليمية الأولية .

الميول والإستعدادات :

لا نستطيع أن نقول أن آراءه فى هذا الميدان هى آراء علمية دقيقة بمقاييس علم النفس التربوى ونظرياته ، وإنما هى ملاحظات لا تخلو من صدق وصواب ، وتشمل هذه الآراء الآتى :

التربية والذكاء :

وعن التربية والذكاء يذكر أن التربية لا تخلق الذكاء لأنه غريزى وإنما هى تنمى وتحسن الإدراك ، ومع ذلك فالتربية الحسنة فى حد ذاتها خير من الذكاء المتوسط والذكاء الكامل إذا صحبته التربية كان عظيم النجاح[٢] .

فليس الناس – إذًا – متساويين فى الذكاء أو كما قال « ديكارت » العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس » ، بل هم يتفاوتون فيه ويختلفون ، لأنه وراثى ، ودور التربية أنها تصقله وتنميه وتعمل على توجيهه توجيها سليما .

أثر التنافس :

ويتحدث عن أثر التنافس فى التحصيل ، فيذكر أن التنافس صفة نفسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الإجتهاد ليفوق الأقران ، أو يساويهم وأن يستقرى ويبحث عما يفعلونه من الحسن الطيب ليشارك الأقران فيه ويبرع فيه بجودة فهمه ودقة نظره ويعتبره من أكمل الفضائل فى المجتمع .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .

الإستعداد ومبدأ الثواب والعقاب :

يرى الطهطاوى أنه من الواجب أن تقوم العملية التعليمية على ميول التلاميذ وأن تتفق مع إستعدادهم فنصح المعلم بأن يعلم التلاميذ ما تقبله طباعهم إذ ليس كل أحد يصلح لتعليم العلومجميعا ، ويرفض أن يكون العقاب وسيلة للتعليم ويقول أما ما يفعله معلمو القرآن الشريف وشدة تعنيفهم وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين فى التعليم فهو خروج عن حد الشرع ، ويترتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون عن الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك خصوصا وأنهم مفارقون اللعب إلى الحبس الضيق ، ويرى أن مبدأ الثواب يجب أن يعمم فيقول :

ان رمت أن تشوق الأولادا وأن ترى من نجلك إجهادًا
فعده بالاتحاف يوم العيد وقدم الوعد على الوعيد

العلاقة بين المعلم والمتعلم :

تحدث الطهطاوى عن العلاقة بين المعلم والمتعلم ، فذكر أنها يجب أن تقوم على إحترام الطالب لأستاذه والنظر إليه نظرة الابن لوالده وحسن الإفادة منه ، أما المعلم فيجب أن يكون متواضعا لا يغتر بما حصل من معرفة وأن يكون عطوفا على تلاميذه محبا لهم وأن يختار من العبارات التى يؤدى بها المعنى ما هو واضح مفصل .

فى طريقة التدريس والمنهج :

تحدث الطهطاوى عن طريقة التدريس مع الأطفال مقررا لما شاهده فى فرنسا كما تحدث عن المنهج ورأى أنه يجب أن يجمع بين العلم والفن .

طريقة التدريس :

« طريقة أهل باريس فى تعليم أطفالهم القراءة والكتابة أنهم يبتدئون بتعليم الإنسان القراءة فى كتب الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها كما ينبغى حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار ثم يتدرجون إلى

أوصاف الحيوانات المعروفة وخاصة التى يتعلق الأطفال باللعب بها ، ثم يتعلمون كيفية السلوك وطاعة الوالدين ، ثم يتعلمون نبذا فى الحساب ،حتى إذا ما إنتهوا من ذلك بدأوا فى قراءة كتاب أهم منه[١] .

الجمع بين العلم والفن :

ويتحدث عن ضرورة الجمع بين الفنون الأدبية والعلوم البحتة ، ويرى أن كلا منهما يكمل الآخر ، ويؤيد ذلك بأن اليونان لم تترك هذه الحضارة العظيمة إلا بفضل الجمع بينهما « فالعلوم الأدبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة جلية » .

ولعلنا نجد صدى لذلك فيما ينادى به بعض المسئولين من رجال التربية اليوم من ضرورة تزويد الطالب بقدر من العلوم الأدبية إذا كانت دراسته علمية أو تزويده بقدر من العلوم العلمية إذا كانت دراسته أدبية .

تربية البنت :

للمرأة الدور البارز فى إنهاض المجتمع وتطويره ، ودورها لا يقف عند حد الأسرة وصنع الأجيال ، بل يتجاوزه إلى حيث الحياة العامة فهى تعمل وتكافح وتقف إلى جانب الرجل تخفف عنه أعباء الكسب وتكاليف العيش هذا ما شاهده ورآه فى بعثته فى فرنسا .

وبمقارنة ما رآه بما هو موجود فى مصر خاصة والشرق عامة – يتضح مدى الفجوة الشاسعة بين المرأة الغربية والمرأةالشرقية ، فالثانية حبيسة الجهل والقمع والسطوة وأسيرة النزعاتوالنزوات .

وإذا كان المجتمع يسعى للتقدم ويتطلع للنهوض فإن عليه أن يعنى بتربية المرأة ، وقد كان الطهطاوى – فيما يعرف – أول من دعا لتربية المرأة وإعدادها إعدادا يتفق والدور الذى تقوم به .

وقد تناول الطهطاوى فى هذا الجانب الأمور التالية :

أهمية المرأة – طبيعة المرأة – عقل المرأة – وأخيرا تعليم المرأة .

---

(١) رفاعة الطهطاوى ، تخليص الابريز ، ص ٣١٦ .

أهمية المرأة :

يقول الطهطاوى فى أهمية المرأة « خلق الله المرأة للرجل ليبلغ كل منهما الآخر أمله ويقتسم معه العمل ، وجعل المرأة تلطف لزوجها أتراحه وتضاعف أفراحه وتحسن أمر معاشه ، وتنشط حركة إنتعاشه ، فهى أجمل صنع الله القدير ، وقرينة الرجل فى الخلقة والمعينة على أول حركات التدبير ، والحافظة لأطفاله ، والقائمة بأمر عياله » .

ولا ينظر الطهطاوى للمرأة نظرة المتشكك فى آدميتها أو المنتقص من إنسانيتها فهى معه فى الخلقة على حد سواء ، وهيكلهما مستو فى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء .

وإذا كان هناك من تباين فى الصفات فمرد ذلك إلى طبيعة الدور الذى يقوم به كل منهما ، فالمرأة تستكمل درجة النمو فى زمن أقل مما ينمو فيه الرجل وفى سن العشرين تحرز المرأة كل مقومات الأنوثة ، وهى تبقى مدة طويلة على جمالها ولطافة شكلها غير أن مجموع عضلاتها قليل الإنبساط والتمدد ، ولهذا لم تكن مستعدة لأن تشترك مع الرجل فى الأشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والرخب . ومن حيث قوة أعصابها فهى دقيقة الإحساس سريعة الإنفعال ولا تطول مدة الإحساس عندها ، ولا تمكث كإحساس الرجل ، لأن تواتر المحسوسات على الحواس القوية التأثير يمحو بعضها بعضا[١] .

طبيعة المرأة :

ويلخص الطهطاوى رأيه فى طبيعة المرأة وما يعترى هذه الطبيعة من تغيير وتبديل فيقول : « وبالجملة فبنية النساء على هذا النظام توجب كونهن ألطف من الرجال طبعا وأرق حاشية ، وإنما يعتريهن التغيير والتبديل من أمور أجنبية ، تطرأ عليهن من مزاج القطر ، ومن التربية ، ومن أحوال المعيشة ومن التروضات والإعتيادات[٢] .

والملاحظ هنا أنه يشير لأثر البيئة فى تكوين الشخصية وكذلك أثر التربية .

---

(١) المرشد الأمين ، ص ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

رأيه فى عقل المرأة :

وهو لا يقلل من عقل المرأة ، أو يهون منه بل يقول : « ومما يوجد فى الأنثى قوة الصفات العقلية وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوى قويم ... فعقل النساء الغريزى وسهولة إدراكهن مما يلطف الجمعيات الإئتناسية وعقولهن القوية ، فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزى ذات معارف كافية وظرائف شافية زادها عقلها كمالا على ما تعرفه وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات ووفائق الكنايات ورقائق التوجيهات والتلميحات ، وتؤول المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات .

والطهطاوى يدرك أن الوظيفة الأولى للمرأة هى الأسرة فيتحدث عن الزواج حديثا مفصلا يشمل الجمال والحسن كما يشمل البكارة والثيوبة ، ويتناول لون المرأة وإستحباب الزينة والطيب للنساء ، وما يجب أن يقوم بين الزوجين من علاقات المحبة والصداقة والعفة والأمانة .

ويرى أن أداء هذه الوظيفة على الوجه الصحيح إنما يكون بحسن تربية المرأة وترسيخ صفة الحياء فيها .

ولسنا ندرى إلى أى مدى كان الطهطاوى محقا فى قوله : « إن فى النساء مثلبتين من أصل الخلقة وهما الضعف والجبن ويجب فى تربيتهن حال الصغر تمكين هاتين المثلبتين اللتين هما فى الحقيقة فضيلتان ، فإن النساء إنما فقدن كمال الحرية وكدن أن يكن تحت الحجر ليدوم فيهن الحلم والإنكسار والخضوع »[1] .

تعليم المرأة :

« والطهطاوى » فى حديثه عن تعليم البنت يرفض الأقوال المألوفة والشائعة من أن المرأة ماكرة بطبعها ولا يعتمد على رأيها لنقص عقلها ، وتعليم القراءة والكتابة ربما حملها على الوسائل غير المرضية مثل كتابة رسالة إلى زيد ، ورقعة إلى عمرو ، وبيت شعر إلى خالد ونحو ذلك ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقها كالرجل فى جودة العقل وصواب الرأى ، وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقها لحفظ متاع البيت ، ووعاء لصون مادة النسل ، فمثل هذه الأقوال لا تفيد »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

يرفض الطهطاوى مثل هذه الأقوال ويدعو إلى أن تتعلم البنت القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدها أدبا وعقلا ويجعلها بالمعارف أهلا ، ويصلح به المشاركة للرجال فى الكلام والرأى فتعظم فى قلوبهم ويعظم مقامها لزوال ما فيها من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها .

ولا يرى أى إبتذال للمرأة بسبب تعلمها ، ولم يعهد أن عددا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن ، ومن ذهب إلى ذلك فهو مدفوع بدافع الغيرة الشديدة عليهن هذه الغيرة التى لا تليق إلا بالمجتمع الجاهلى ويضع الطهطاوى فرضا يوضح به ضرورة تعليم البنت فيذكر أنه لو فرضنا أن إنسانا أخذ بنتا صغيرة السن مميزة وعلمها القراءة والكتابة والحساب وبعض ما يليق بالبنات أن يتعلمنه من الصنائع كالخياطة والتطريز إلى أن تبلغ خمس عشرة سنة ثم زوجها لإنسان حسن الأخلاق ، كامل التربية مثلها فلا يصح أنها لا تحسن العشرة معه ، أو لا تكون له أمينة ، ومثل ذلك سائر البنات ، فإن تعليمهن فى نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن ، فلا شك أن حصل النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة والإطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال ، فالأدب للمرأة يغنى عن الأدب[١] .

أهداف تعليم المرأة :

ولا يفوت الطهطاوى أن ينوه بأهمية التربية للمرأة كأم « فآداب المرأة ومعارفها تؤثر تأثيرا كبيرا فى أخلاق أولادها ، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت ، والإشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها بخلاف ما إذا كانت ترى أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير لازمة حيث تتصور البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك ، فتألف ذلك من صغرها .

ويدعم الطهطاوى دعوته إلى تعليم البنت بأمثلة من الحضارة الأوربية والتاريخ الإسلامى فيقول : « وقد إجتهد الأورباويون الذين بلادهم الآن هى أقوى البلاد فى أن يربوا بناتهم كتربية الأولاد ، وكانت عادة الفرنساوية قديما أن يربوا بناتهم فى أديار الراهبات ويمكثن

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

فيها إلى حد تأهيلهن للزواج ، وكثير من هؤلاء البنات كن يلبسن زى الراهبات إلى أن يخرجن من هذه المكاتب بوصف كونهن عرائس .

وفى بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانونا ، وحتى عد أن فى بورسيا سدس الأهالى يتعلمون فى المكاتب ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة (سويسرا) ومملكة بلجيقا والفلمنك وممالك أمريقة المتحدة ، فلهذا كان أبناء أوربا وأمريقة ذكورا وإناثا يحسنون فى الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافى ويعرفون مبادىء المعارف التى يتزين بها عقل الإنسان ، وهذا يشترك فيه عموم الأهالى[1] .

ومن التاريخ الإسلامى فقد ورد فى كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة ، وقد كان فى زمان رسول الله ﷺ ، من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء ، كالشفاء أم سليمان ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال لها : علمى حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب أى الخط والهجاء[2] .

فالتعليم – إذا – يهدف إلى إعداد الزوجة الناجحة كما يهدف إلى إعداد الأم الفاضلة .

على أن التعليم أيضا يهدف إلى العمل ، والطهطاوى لا يعارض فى أن تتعلم المرأة من أجل العمل متى اقتضى الحال ذلك ، فهو يقول : « وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء ، وأفعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وهكذا »[3] .

والملاحظ هنا أن الطهطاوى قد حدد عمل المرأة بأمرين :

---

(١) المرشد الأمين ، ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

١ – اقتضاء الحال .

٢ – تناسب العمل الذى تقوم به مع جهدها وإمكاناتها .

وبعد : فإن الطهطاوى ليعد بحق رائدا لحركة التنوير الفكرى ، تلك الحركة التى إلتقت فيها العقلية الشرقية بكل ما فيها من رواسب بالعقلية الغربية بكل ما فيها من تطور ، ولم يكن لهذا التفاعل ليناقض الجوهر الإسلامى الأصيل وإنما كان تفاعلا حيّا يؤكد أصالة هذا الجوهر وقدرته على احتواء متغيرات العصر وبعثه فى شكل يلائم تطور العصر ورقى المدنية .

وقد عنى الطهطاوى – كما سبق أن عرضنا – بأمرين كان يرى فيهما سر التطور والرقى ، هذان الأمران هما : نظم الحكم ، والأحوال الاجتماعية وفى مقدمتها حال المرأة .

ولقد اضطهد الطهطاوى لأنه قرر حق الشعب فى إدارة حكم بلاده ، مستدلا بنصوص واضحة من الدين الحنيف وأمثلة رائعة من التطبيق الإسلامى التاريخى ، ومستدلا أيضا لما رأى فى فرنسا وشاهد .

لقد كان الطهطاوى أول صوت فيما نعرف نادى فى مصر الحديثة بوجوب تعليم البنت ، ورفض تلك الحجج الواهية التى ارتكن إليها الواهمون من أن المرأة إن تعلمت فإنها تتقن كتابة خطابات الغرام . لقد دافع الطهطاوى عن وجوب تعليمها كل علم ممكن ، فمن يدرى ؟ ربما مات عائلها فإضطرت للعمل فلابد أن تسلح لكل احتمال ، لكنه إعترف بقيدها وحبذ حجابها ، ونظر إليها على أنها مخلوق مكمل لوجود الرجل ، وإن كانت لها رسالة فهى رسالة تربية النشىء الجديد ولا يمكن لها أن تنهض بهذه الرسالة إلا بعد تعليمها وتربيتها .

لقد تحمس الطهطاوى بالقدر الذى يسمح به زمانه للإصلاح الاجتماعى ولتعليم المرأة ، ولقد كان موضوع المرأة يشغله كثيرا وإتضح هذا من تلك الموازنات العديدة بين نساء مصر ونساء فرنسا فى التصرف والعادات ، ومن الحديث الطائل الذى خصها به فى كتابه المرشد الأمين .

وكان يمكن لدعوة الطهطاوى أن تثمر سريعا لولا أن كان الإستبداد ذلك الذى أصاب الحياة بالشلل فى كل أنحائها ومنها دعوة الطهطاوى فى الإصلاح السياسى

والاجتماعى ، وكان على المرأة أن تتوارى خلف الضباب مرة أخرى حتى يحين الوقت الذى يتبدد فيه هذا الضباب لتطل دعوة إصلاح حال المرأة برأسها من جديد ولتجد من يتحمس لها ويقف عليها جهده .

إذا كان الطهطاوى قد قدر له أن يكون هذا المصلح فذاك لأنه كان بمثل التيار المصرى الصميم والتعليم الأزهرى العربى خير تمثيل ، فامتزجت فى نفسه وفكره ثقافة عربية عميقة أصيلة بثقافة فرنسية عصرية راقية بعيدا عن التيارات السياسية والمطامع الإمبراطورية سواء من خلفاء نابليون أم من محمد على وخلفائه .

obeikandl.com